# دراسات لناجي علوش

## من مجلة دراسات عربية

## للعامين 1965 و 1966

# العالم الثالث بين الثورة والثورة المضادة

ناجي علوش

**يمكن تحديد العوامل التي صنعت « العالم الثالث » بما يلي :**

**اولا : محاولة الخروج من نطاق العالم الاستعماري .**

**ثانيا : محاولة التميز عن العالم الشيوعي .**

**ثالثا : الشعور بالرابطة التي تربط البلدان المتخلفة ، وهي رابطة التخلف والنضال المشترك ضد الاستعمار .**

ولكن العامل الثاني ، طبع العاملين الاخيرين بطابع خاص ، وحد من مفعولهما الى اقصى حد . ذلك ان الفئات القائدة في العالم الثالث وهي من البرجوازية الوسطى والصغيرة ، في الوقت الذي كانت فيه تقود النضال الاستقلالي ضد الاستعمار، كانت تريد ان تمنع بلدانها من السير في طريق الاشتراكية .

« العالم الثالث » الموجود فقط على نطاق التخلف ، هو ليس اكثر من بدعة برجوازية على المستوى السياسي . انه ليس عالما ثالثا على مستوى الوضع الحالي والصيرورة. فهو من ناحية ما زال تابعا للمعسكر الاستعماري اقتصاديا ، وبالتالي سياسيا . وتتمثل هذه التبعية في الحقائق التالية :

اولا : ان تخلف بلدان العالم الثالث، ادى بشكل اتوماتيكي الى ان تكون منتجة للمواد الاولية ، ومصدرة لها، بينما تتجه الدول المتقدمة لانتاج المواد المصنعة . ان تقسيم العمل الدولي هذا يزداد عمقا بدل ان يتناقص . وتعمد الامبريالية العالمية جهدها لابقاء العالم الثالث حيث هو. ان هذا هو هدفها الرئيسي ، وعماد استراتيجيتها .

ثانيا : ونتيجة لما سبق فان ٩٠ بالمائة من صادرات بلدان العالم الثالث الى البلدان الراسمالية هي من المواد الاولية . وعلى العكس من ذلك ، فان

اكثر صادرات الدول الراسمالية الى العالم الثالث هي من المواد المصنعة. وبينما اخذت اسعار المواد المصنعة في الارتفاع منذ سنوات ، فان اسعار المواد الاولية آخذة في الانخفاض . « لقد خسرت كوستاريكا وسلفادور وغواتيمالا من جراء تخفيض اسعار البن منذ عام ١٩٥٦ الى عام ١٩٦٠ مقدار ٤٨٠ مليون دولار . » (١) وما

## جدول *

| | فرنسا (ملايين الدولارات) | انكلترا (ملايين الجنيهات) | الولايات المتحدة (ملايين الدولارات) | المانيا الغربية (ملايين الماركات) |
|---|---|---|---|---|
| ١٩٥٠ | ٨٤ | ٢٧١ | ١٧٠٢ | — |
| ١٩٥١ | ٨٧ | ٣٠٧ | ٢٠٨٠ | — |
| ١٩٥٢ | ١٠٧ | ١٩٠ | ٢٠٣٢ | ٢٩ |
| ١٩٥٣ | ١١٥ | ٢٨٦ | ٢١٦٢ | ٨٠ |
| ١٩٥٤ | ١٢١ | ٣١٣ | ٢٤٩٩ | ١١٢ |
| ١٩٥٥ | ١٥٩ | ٣٤٦ | ٢٧١٨ | ٢٠٨ |
| ١٩٥٦ | ٢١٦ | ٣٧٣ | ٢٨٥٢ | ٢٩٥ |
| ١٩٥٧ | — | ٣٦١ | ٣٠٨٦ | ٤٠٥ |

« ان الامبريالية العالمية ما زالت توالي نهب العالم الثالث . « فمنذ عام ١٩٥٠ حتى عام ١٩٥٩ وظفت الشركات الاميركية الخاصة ٤٫٥ مليار دولار في الاقتصاد الوطني للبلدان النامية ، وجنت في هيئة ارباح ما يقرب من ثلاثة امثال هذا المبلغ ، اي ١٢٫٨ مليار دولار . وبلغ الربح الصافي ٨ مليارات و ٣٠٠ مليون دولار الاولى » (٢) .

رابعا : لقد قايل الزيادة في التبادل بين بلدان العالم الثالث والدول الراسمالية انخفاض في التبادل بين دول العالم الثالث ذاتها . ولناخذ من اميركا اللاتينية مثلا ، ذلك ان من هذا الا مثل بسيط للخسارات التي تتكبدها بلدان العالم الثالث من تحكم الدول المتقدمة صناعيا بالاسعار .

ثالثا : ان ارباح الراسمالية العالمية من بلدان العالم الثالث زادت بدل ان تتقلص بعد استقلال اكثر بلدان آسيا وافريقيا ، ويعطي الجدول التالي فكرة عن زيادة الارباح في الفترة ١٩٥٠ ـ ١٩٥٧ :

مليون دولار . ومنذ عام ١٩٦٠ حتى عام ١٩٦٢ ازدادت هذه الارباح اكثر من ذي قبل ... وتجدر اضافة مليارات اخرى من الربح الناتج عن التجارة والفائدة المترتبة على القروض والنقل المائي الى الـ ٨ مليارات و ٣٠٠ مليون دولار الاولى » (٢) .

(١) فيتوني : البلدان المتخلفة وسياسة الغرب الاقتصادية ، ص ٩٢ ، دار التقدم ، موسكو .

* مجلة الطريق ـ العدد ٣ و ٤ ، ٩٦٦ ص ٨

(٢) المرجع السابق ، ص ٨٠

٤٠ ـ ٤٥) بالمائة من التجارة الخارجية لاميركا اللاتينية مع الولايات المتحدة، بينما لا تزيد نسبة التجارة الداخلية بين بلدان اميركا اللاتينية عن ٨ بالمائة (٣) . وهكذا نجد ان « العالم الثالث » الذي يعقد المؤتمرات لمزيد من التضامن والتفاعل ، ما زال يسير بخطى حثيثة نحو علاقات اوسع مع الرأسمالية ، بينما لا تتوسع علاقات اقطاره بعضها ببعض ، على الرغم من القرارات والتصريحات ، وتقل نسبة التبادل التجاري بينها .

خامسا : ان تخلف بلدان « العالم الثالث » يجعلها بحاجة ماسة الى المساعدات الخارجية والقروض . ولقد فطن الاستعمار الجديد الى هذه الحاجة ، فاخذ يستعملها للاغراض التالية :

أ ـ احكام السيطرة السياسية على البلدان المتخلفة .

ب ـ توجيه التطور الاقتصادي ، بخلق صناعات خفيفة هامشية ، وربط هذه الصناعات بالدول التي تنتجها ، ودعم « المشاريع الحرة » .. الخ .

ج ـ خلق طبقة منتفعة من الحكام .

د ـ ربط اقتصاد البلدان المتخلفة بعجلة السياسة الحربية للامبريالية .

ان « المساعدة الاقتصادية » الاميركية لتايلاند ـ مثلا ـ تزداد عاما بعد عام . لكن التزامات لها صلة بتلقي « المساعدة » والعضوية في حلف سياتو تضطر تايلاند الى صرف زهاء ٧٠ بالمئة من ميزانيتها على الاغراض العسكرية . وهذا يعني ان النفقات المباشرة وغير المباشرة على اغراض الدفاع في الاعوام الاخيرة تفوق جملة «المساعدة» بضعفين او ثلاثة اضعاف » (٤) .

ومع هذا فان القروض والمساعدات ليست الا جزءا بسيطا من الارباح التي تنهبها الامبريالية من « العالم الثالث » .

سادسا : وما زال عدد من بلدان « العالم الثالث » واقعا تحت النفوذ المباشر او غير المباشر للدول الاستعمارية . وما زالت هنالك قواعد للاستعمار في انحاء مختلفة من « العالم الثالث » .

ويشهد العالم الثالث في هذه الايام ردة رجعية . لقد انتهت معارك الاستقلال السياسي في اكثر اقطاره ، وبدات بعض هذه الاقطار في تخطي النظام الراسمالي في تطورها مدفوعة بعوامل عدة ، اهمها حرصها على وضع اسس انسانية سليمة للتطور ، وتجاوز التخلف الذي تعانيه . ولكن الامبريالية والرجعية قابلتا هذا « الانقلاب » بالعنف الدموي ، وكل انواع الارهاب والتضليل . من العدوان على مصر سنة ١٩٥٦ الى انقلاب غانا في هذا العام شاهد العالم الثالث انقلابات واضطرابات ومناورات سياسية عديدة ، يكفي ان

---

(٣) مجلة الشؤون الدولية ، العدد الخامس احتكارات الولايات المتحدة في اميركا اللاتينية

(٤) فيتوني : المرجع السابق ، ص ٣٦

تذكر منها الاطاحة بحكم لومـــومبا الوطني فـــي الكونغو ، والعدوان الاميركي على فيتنام وقيام الحكم العنصري في روديسيا والقضاء على التحالف الوطني التقدمـــي فـــي اندونيسيا .

ولقد اثبتت تجارب البلدان المتخلفة ان الامبريالية التي قبلت اشكالا من الاستقلال السياسي للدول المتخلفة لسبب او لاخر ، غير مستعدة لقبول اي شكل من اشكـــال الاستقلال الاقتصادي الحقيقي . ففي « العالم الثالث » حتف الاستعمار . ان فيه « ريف العالم » المهيأ بحكم الظروف العالمية ــ زيادة النفوذ السيـــاسي للامبريالية ، وزيـــادة الاستغلال الاقتصادي الذي تمارسه الامبريالية، ومحاولة اللحاق بركب العالم المتقدم والتحرر مـــن التخلف ، ووجود المعسكر الاشتراكي ــ للثورة . وهذه الثورة التي تحرر « العالم الثالث »، وتحرم الامبريالية من مجالات نفوذها السياسي ، ومجـــالات استغلالها الاقتصادي ، هي حتف الامبريالية .

وتقوم الامبريالية ــ نتيجة ادراكها لهذه الحقيقة ــ بحشد كل قواهـــا لتمزيق القوى الوطنية في « العـــالم الثالث » واحكام السيطرة عليه . وهذا عامل من عوامل الردة التـــي نشاهدها اليوم في اقطار « العـــالم الثالث » .

اما العامل الاخر ــ وهو الاكثـــر اهمية ــ فيتعلق بطبيعة تكوين القوى الوطنية في العالم الثالث ، وقواعدها الشعبية ، وبالمراحل التي مرت بها خلال تطورها .

ويمكن ان نحدد ذلك بما يلي :

اولا : كانت الحركات الوطنية في « العالم الثالث » استقلالية الطابع، تقودها فئات اقطاعية او راسمالية او فئات من البرجوازية الـوسطى والصغيرة . وكانت هذه القيادات ترفع شعار الاستقلال او الجـــلاء ولكنها لا ترى في الاستقلال اكثر من انسحاب جيوش الاحتلال او بقائهـــا بموجب معاهدة . ولقد استطاعت القيادات ان تصرف الجماهير عـــن الكفاح من اجل استقلال حقيقي ، ومن اجل اهداف اجتماعية . كانت الفكرة السائدة هي : الاستقلال اولا وقبل كل شيء وفوق كل شيء،وكان هناك من يصيح « نريد استقلالنا مع عرينا وفقرنا » (٥) .

ولقد تحقق الاستقلال في اكثـــر بلدان « العالم الثالث » ، ولكنه كان استقلالا شكليا . ظلت هذه البلدان تابعة اقتصاديا ، وظل اكثرها تابعا من الناحية السياسية تبعية مباشرة. ومضت سنوات علـــى الاستقلال فاكتشفت الجماهير ان اوضاعها لم تتغير ، وان رفع العلم الوطني محل العلم الاستعماري ، وحلول ادارة وطنية محل الادارة الاستعمارية، لم يكن يعني غير استبدال مستبد مستغل اجنبي بمستبد مستغل وطني . وكانت الطبقات الحاكمة الجديدة ــ الاقطاع

---

(٥) مالك بن نبي ، شروط النهضة ومشكلات الحضارة .

والبرجوازية التجارية ـ متخلفة جدا، ترفض اي تغيير ، وتهمة تسعى للمكاسب الخاصة . وكان كل ما فعلته للوطن هو انها حولت الدولة الى أداة نهب واستغلال بيدها : وظيفتها تنفيذ مخطط الامبريالية العالمية .

كانت الطبقات الحاكمة الجديدة ـ الا فيما ندر ، وحيث كان طابع الحركة الاستقلالية اكثر تقدمية ـ تعمل من اجل المزيد من الارتباط بالامبريالية ، والمزيد من اضطهاد الجماهير .

ولقد ادى هذا الى وقوفها ضد جماهيرها .. ضد الجماهير التي تحملت عبء معركة الاستقلال. وكان ان بدات الصدامات .

ثانيا : لم تكن في اكثر هذه البلدان احزاب ثورية ذات برامج اجتماعية. او كانت فيها احزاب وسطية غامضة الشعارات والاهداف ، ولكنها احزاب محدودة الانتشار والفعالية . اما الاحزاب الشيوعية فقد كان بعضها ناشئا ، وبعضها الاخر منعزلا عن الجماهير او اصلاحيا . ولهذا فقد قامت قطاعات من البرجوازية الوسطى والصغيرة المتنورة بعبء الانتفاض على « الحكومات الاستقلالية » . ولما كانت هذه الفئات ضئيلة بالنسبة للجماهير الواسعة ، وغير منظمة ـ على الاكثر ـ سياسيا ، فقد قامت القيادات المتنورة نسبيا في الجيوش بالاضطلاع بعبء التمرد على القيادات الاستقلالية ، في بعض البلدان، بينما استطاعت عناصر من هاتين الفئتين ان تتسلم السلطة في بعضها الاخر، نتيجة ظروف المعركة الاستقلالية الاكثر عنفا .

ويمكن ان نحدد مميزات العناصر الحاكمة الجديدة بما يلي :

ا ـ انها ضئيلة بالنسبة للجماهير.

ب ـ انها وسطية تدعو للاشتراكية، وتحاول تعميم الملكية الفردية، وتنادي بالديمقراطية بينما تقوم بفرض سلطة متعالية على الجماهير .

ج ـ انها ذات ثقافة برجوازية ليبرالية .

د ـ انها مهزوزة في تكوينها ، فهي ليبرالية من حيث الدراسة ، بينما هي اقرب للعشائرية من حيث التكوين الثقافي .

هـ ـ ان اصولها ـ واكثرها ينحدر من عائلات مالكة ـ تجعلها فردية ، ترفض الحزبية ، وتستعيض عنها باشكال من التنظيم الجماهيري غير الفعال .

وكان من نتيجة هذا كله ان لجأت هذه العناصر الى تعطيل الجماهير، وشل فعاليتها ، في الوقت الذي اخذت فيه تتصدى لتغيير بعض بنى المجتمع التقليدية . اصبحت في الوضع الجديد الاشتراكية «قرارات» تعلن في المناسبات والاعياد، ومكافحة الاستعمار خطبا تلقى بمناسبة ودون مناسبة ، واصبح التصدي لمقاومة الشيوعية واجبا اساسيا من واجبات هذه « الحكومات » ، لا يقل اهمية عن مقاومة الاستعمار . ان شعار

لا شرقية ولا غربية » الذي كنا نسمعه يردد في كل مظاهرة لم يكن تعبيرا عن الحاجة للشعور بالتفرد القومي فقط ، بل كان يعني رفض الشيوعية ايضا .

من هذه الروح التي تساوي بين المعسكر الاشتراكي والمعسكر الرأسمالي انطلق شعار « العالم الثالث » الذي وجدت فيه البرجوازية الوسطى والصغيرة ستارا تخفي وراءه افكارها الوسطية .

وتمثلت هذه الافكار الوسطية في الموقف من التغيير الاجتماعي ، وفي الموقف من الامبريالية العالمية . فعلى الصعيد الاجتماعي كان موقف هذه العناصر رجراجا ومتناقضا ، فهي من جهة انشأت القطاع العام ، ومن جهة اخرى قامت باجراءات اصلاح زراعي عكس الملكية الصغيرة . وهي تحول الملكيات الكبيرة الى الدولة ، وتعزل الاقطاع والبرجوازية التجارية ، ولكنها لا تمس المؤسسات الثقافية للفئات المعزولة .

اما في الموقف من الاستعمار والامبريالية العالمية ، فهي تعلن الحرب الدعاوية ، ولكنها لا تدخل المعارك مع قواعده دخولا حاسما . وحيثما كان الاستعمار يهاجم كما حدث في الكونغو او فيتنام فقد كانت هذه العناصر تقف مكتوفة الايدي . في مقابل هذا كانت القيادات الجديدة في البلدان المتخلفة تضع المخططات للحصول على القروض والمساعدات اللازمة من الدول الاستعمارية .

ثالثا : وكانت خطط التنمية المرتجلة احيانا ، وغير الجذرية في احيان اخرى ، تصبح مادة للدعاية المبتذلة . غير ان هذه الخطط لم تكن بطبيعتها قادرة على احداث تغيير جذري في حياة المواطنين ، وبناء الوطن . فهي قد تضع في حسابها انشاء بعض الصناعات الاساسية ، ولكنها تتجه لاشباع حاجات الفئات الحاكمة اولا . ان اكثر القروض والمساعدات وموازنات التنمية تصرف على انشاء مجتمع برجوازي مرفه ، حتى في ظل القطاع العام و « الاشتراكية » . ان اكثر فلاحي بلدان العالم الثالث ـ وهي بلدان فلاحية ـ لم تتحسن احوالهم حتى بعد ان انتهى عهد الاقطاع ، واصبح بعض منهم ملاكا صغارا .

ان اكثر دول العالم الثالث اهتماما بالتنمية *، واكثرها حديثا عن التقشف تتجه اكثر فاكثر نحو ترفيه قطاعات من الشعب على حساب قطاعات اخرى . ويبرر مثل هذا الاتجاه بما يسمى مثلا : « عدم التضحية بالجيل الحالي من اجل الاجيال القادمة » . ولكن هذا التبرير لا يمكن ان يخفي الحقيقة الواضحة ، وهي ان الترفيه لا يشمل هذا الجيل ، وانما يشمل فئات محدودة منه وهي البرجوازية الوسطى والصغيرة في المدينة خاصة ، وانه يتم على حساب ملايين الفلاحين والعمال . فهل يجوز ان نضحي بضروريات ملايين العمال

* نستثني من ذلك الصين وكوبا مثلا .

والفلاحين من اجل فئات محدودة من البرجوازية الوسطى والصغيرة أهذا ما يحدث فعلا ، وما يسمى « عدم التضحية بالجيل الحاضر من اجل الاجيال القادمة » .

رابعا : وكانت اوضاع « جماهير الثورة » ، وهي جماهير متخلفة ومعزولة وغير منظمة ، تزيد من تعقيد مشكلة القيادة والبناء في العالم الثالث . ذلك ان الجماهير الفلاحية الواسعة ظلت سلبية بعد الاستقلال نتيجة موقفها التاريخي من السلطة، وموقف السلطة الجديدة منها. انها لا تساهم بالنشاط السياسي اليومي، ولا تميل للانغماس بالمناورات السياسية التي يتقنها محترفو السياسة من ممثلي الطبقات المستغلة . وهي تزداد سلبية بعد ان ترى كيف شوه الاستقلال التي حاربت من اجله . واذا كانت القيادات الاستقلالية قد خسرت ثقة هذه الجماهير ، فان القيادات الجديدة قائدة الانقلابات وحاملة لواء الثورات ، لم تستطع ان تكسب ثقتها .

وكان هناك عامل اخر شجع الامبريالية على مزيد من الشراسة، وهذا العامل هو الصراع الصيني السوفياتي ، وانقسام الحركة الشيوعية العالمية ، وانتهاج الاتحاد السوفياتي سياسة تعايش سلمي مهاودة .

ان هذه العوامل جميعا ادت الى الردة التي نشاهدها . ولقد كانت هنالك عوامل مساعدة لا بد من ذكر اهمها :

ا ـ تطور وسائل التعبئة ، حتى ان الامبريالية اصبحت قادرة على نقل الحرب الى اي جزء من العالم بسرعة وسهولة .

ب ـ سياسة التوازن الذري التي ينتهجها المعسكران الكبيران ، والتي تتيح للامبريالية العالمية بقيادة الولايات المتحدة ان تهاجم متى ارادت بعنف وشراسة بعد ان اخذت زمام المبادرة على المستوى العالمي .

ج ـ سياسة التنسيق بين الدول الاستعمارية في مواجهة حركات التحرر الوطني ، التي تلتزمها الدول الاستعمارية ، على الرغم من الخلافات والصراعات فيما بينها .

مقابل هذا كانت حركات التحرر تعاني انقسامات خطيرة ، فالحركات الشيوعية في جهة ، والحركات الوطنية الديمقراطية في جهة . هذا على الصعيد المحلي . اما على صعيد العالم الثالث فلم يقم بين حركات التحرر الوطني اي نوع من التنسيق الجدي في العمل من اجل البناء، وفي العمل لمقاومة الاستعمار . لقد عقدت عشرات المؤتمرات ، واتخذت مئات القرارات ، ولكن هذا كله لم يكن ذا غناء . ثم ان اخطاء الشيوعية المحلية في اكثر هذه البلدان ، واخطاء الحركات الوطنية قادت الى صراع بين الحركات الشيوعية والحركات الوطنية . وكان من نتيجة ذلك ان كثيرا ما اصطدمت حركات التحرر

الوطني بالمعسكر الاشتراكي ، او وقفت موقفا محايدا منه .

ان تحرر « العالم الثالث » يحتاج الى ما يلي :

اولا : وحدة الحركة الوطنية في كل قطر من اقطاره ... باندماج الجناح الشيوعي في الجناح الوطني، وذلك وفق برنامج ثوري يحدد اهداف الحركة الوطنية في التحرر والاشتراكية والوحدة القومية ـ حيث يكون هذا مطلبا جماهيريا ـ اي في البلدان المجزأة .

ثانيا : تحقيق وحدة كفاحية بين الحركات الوطنية في العالم الثالث والقوى العمالية التقدمية في العالم الرأسمالي والمعسكر الاشتراكي .

ثالثا : ان تعبئة شاملة للجماهير، من اجل الكفاح المسلح الطويل المدى ضرورية ضرورة قصوى لمجابهة التحدي الاستعماري والقضاء عليه . ولن يكون ممكنا مجابهة غزوات الامبريالية العالمية الا بتوسيع جبهة النضال ضدها ، وفتح معركة شاملة ضد عملائها وقواعدها . ولعل عجز الحركات الوطنية في العالم الثالث عن ان تتخذ مثل هذا الموقف ، هو الذي جعل الامبريالية تتمادى في الكونغو وفيتنام وغانا .

رابعا : ان استيلاء بلدان العالم الثالث على مصادر الثروة فيه،يغنيها عن استجداء المعونات والقروض من الامبريالية العالمية ، ويحررها من حاجتها اليها . فثروات العالم الثالث كافية لسد حاجاته ، ولتحقيق مشاريعه الانمائية . خاصة اذا اضفنا اليها مساعدات الدول الاشتراكية .

ان « العالم الثالث » لا يستطيع ان يبقى ثالثا ، فهو اما ان يسير على طريق الاشتراكية ، او ان يرتمي في احضان الامبريالية . وهذا لا يعني انه مخير بين الارتماء في احضان الشرق او في احضان الغرب، ولا يعني انه مطالب بنسخ تجربة الاتحاد السوفياتي او الصين او غيرهما . فهو يستطيع ان يختار سبل بنائه للاشتراكية ، ولكنه عندما يصبح اشتراكيا ، فلن يظل ثالثا . ولن تفيد مناورات الطبقات الحاكمة في العالم الثالث في اتخاذ موقف وسط ، بين الاشتراكية والرأسمالية ، لان العالم الثالث يجب ان يحارب الرأسمالية ليتحرر .

ولكي يكون العالم الثالث حتف الاستعمار يجب أن يفتح هذه الجبهة الطويلة العريضة على الامبريالية .

# الحركة العربية بعد الحرب العالمية الاولى ١

ناجي علوش

## ثالثا : الحركة العربية والتجزئة السياسية

( ١ )

**كانت اول ثمرة من ثمرات انهيار السلطنة العثمانية ، استيلاء الحلفاء على تركة « الرجل المريض » . وكان الوطن العربي من نصيب بريطانيا وفرنسا : اللتين احتلتا من قبل اجزاء منه .**

**وكان رجال الحركة العربية ، والشريف حسين على صلة ببريطانيا . وكانوا يؤملون خيرا من تفاهمهم معها ، وان كان بعضهم غير مطمئن . ولقد بذلت بريطانيا للعرب الوعود جزافا .**

فلما انتهت الحرب ، عملت بريطانيا على التنصل من وعودها . فاعلن فيصل ملكا على الشام ، بينما كان ابوه « ملك العرب » ينتظر تنفيذ الوعود التي وعدته بها بريطانيا . وسقط فيصل امام الغزو الفرنسي ، اما ابوه الذي ظل مصرا على المطالبة بما وعد به ، فقد البت بريطانيا عليه رجل الجزيرة المتحفز ، والخصم التقليدي ، وقائد اقوى حركة « عقائدية » ، عبد العزيز آل سعود ، فاضطر للتنازل ، عن عرش الحجاز ، ليخرج من هناك منفيا فيما بعد .

وقد سويت الامور كما يلي :

١ احتلال فرنسي للبنان وسوريا .

١ ـ احتلال فرنسي للبنان والاردن وفلسطين .

٣ ـ تعيين فيصل بن الحسين ملكا على العراق ، وعبد الله اميرا على شرق الاردن .

وصحب هذا كله ، انشاء كيان لبنان الحالي ، باضافة مقاطعات الى « لبنان الصغير » ، وانشاء اربع دول في سورية الداخلية ، هي دولة

دمشق ، ودولة حلب ، ودولة جبل العلويين ، ودولة جبل الدروز ، وانشاء امارة شرق الاردن ، مقسمة الى ثلاث دول ، هي دولة عجلون ، ودولة السلط وعمان ودولة الكرك(١).

كان الوضع الجديد محزنا ومثيرا في الوقت ذاته ؛ فالعرب الذين ثاروا على الاتراك ، اخوتهم في الدين وتمردوا على الخلافة الاسلامية ، كان يحلمون بالوحدة والاستقلال . ولقد جاء الاحتلال الاجنبي ليحول بينهم وبين الوحدة ، وليحرمهم من حلمهم في الاستقلال . ولم يكن المحتلون هذه المرة مسلمين ، ولا كانوا يحكمون باسم الخلافة ، بل كانوا غزاة مستعمرين ، واعداء غير متسترين . ولقد ادى نكثهم بالوعود التي قطعوها على انفسهم ، واضطهادهم للسكان الى فورات عديدة ، بعضها قام بعد الاحتلال مباشرة مثل ثورة صالح العلي في جبل العلويين ، والثورة العراقية الاولى ، وبعضها قام بعد سنوات مثل الثورة السورية . وكانت الثورة العراقية ( ١٩١٩ ـ ١٩٢٠ ) والثورة السورية ( ١٩٢٥ ـ ١٩٢٧ ) والثورة المصرية ( ١٩١٩ ) اهم هذه الثورات . فماذا كانت اهدافها ؟ لقد كانت اهدافها محلية عموما . فوطنيو العراق ، طالبوا الانجليز سنة ١٩٢٠ بما يلي :

١ ـ « الاسراع في تاليف مؤتمر يمثل الامة العراقية ، ليعين مصيرها، وشكل ادارتها ونوع علاقتها بالخارج.

٢ ـ منح حرية المطبوعات، ليتمكن الشعب من الافصاح عن رغائبه وافكاره .

٣ ـ رفع الحواجز البريدية بين انحاء القطر اولا ، وبينه وبين الاقطار المجاورة والممالك الاخرى ثانيا ، ليتمكن الناس هنا من التفاهم بعضهم مع بعض ، ومن الاطلاع على سير السياسة الراهنة في العالم » (٢) .

ولقد انتهت الثورة « بتشكيل حكومة وطنية في العراق ، بنظارة حكومة بريطانيا » (٣) .

ولم تكن الثورة السورية تستهدف اكثر من الاستقلال الداخلي ، وان طالبت باسترجاع المقاطعات التي اضيفت الى لبنان الصغير ، وتحقيق الوعود التي وعد الحلفاء العرب بها . اما ثورة مصر فانحصرت اهدافها في الجلاء والاستقلال .

ان الثورة العارمة التي كان يموج بها الوطن العربي ، عبرت عن نفسها بانفجارات غير مترابطة ، وبأهداف محدودة ، تجلت في كل الحركات التي قامت ابتداء من حركة صالح العلي في جبل العلويين ، وانتهاء بحركة الامير عبد الكريم الخطابي في

---

١ ـ محاضرات في نشوء الفكرة القومية ـ ساطع الحصري والثورة العربية الكبرى ـ امين سعيد .

٢ ـ الاتجاهات الادبية في العالم العربي الحديث ـ انيس المقدسي ، ص ـ ١٦٤ ـ ط. ثانية : دار العلم للملايين بيروت .

٣ ـ تاريخ الكويت السياسي ـ الجزء ٤ ـ حسين الشيخ خزعل ـ ط. اولى ص ( ٢٤٧ ـ ٢٤٩ و ٢٥٦ ) .

المغرب . فلقـــد قامت حركة صالح العلـي وحركات القبائـل العراقية ، دون أن يقـــوم بينهما اي تنسيق ، وبعد ان اخمدت ، قامت حركة قبيلة العقيدات على الفرنسيين في ديـــر الزور . ثم لم يجر اي تنسيق بيـن « الثورة العراقيـــة » و « الثـورة المصريـــة » ( ١٩١٩ ــ ١٩٢٠ ) او الثورة السورية والثـورة المراكشية ( ١٩٢٥ ) . كـــان الاتصال الوحيد الذي جرى ، هو الاتصال الذي تـــم بين صالح العلي في جبل العلويين ، وابراهيم هنانو في حلب .

وكانت اغلب هـــذه الحركـــات « عشائرية » ، وان كانت قيادتهـــا العليا في ايدي وجاهات المدن . ولم تقم المدن بدور الا في الثورة السورية سنة ١٩٢٥ وثورة مصر .

لقد اثبتت فورات هـذه المرحلة ، بأنها اعجز من ان تتحولَ الـــى ثورة شاملة ، لان الوجاهات القائدة حصرت مطالبها في اهداف محلية محدودة ، وكانت مستعدة للمساومة على الحـد الادنى من المكاسب الرخيصة .

( ٢ )

صحب الاحتلال ، وسقوط الحكم الفيصلي في سورية ، تبعثر رجـــال الحركة العربية ــ كمـــا ذكرنـا ــ وانتشار عقـد احزابها بددا . فلقـد انتهت كل المنظمات والاحزاب ، التي نشأت خـــلال السنوات ( ١٩٠٨ ــ ١٩١٤ ) . ولم يخرج على هذا القانون حتى الحزبان البارزان العهد والفتاة . والجدير بالذكر ان حيـــزب العهد ، انقسم بعد سقوط الحكـم الفيصلي في الشام الى قسمين ، عهد سوري وعهـــد عراقي ، بسبب نزاعـــات شخصية على الزعامة ، واهتمامـات محلية نتجت عـــن اختلاف الظروف في كل من سورية والعراق . «ومهما يكن من امر فان هـــذا الحادث اول افتراق اقليمي فـي تشكيلة قومية ، كانت شاملة المدى . وقـد انكشفت به ناحية من نواحي ضعف البنيـــة القومية الاجتماعية » (٤) .

ان انتشار عقـد الحركات العربيـة السرية ، ظاهرة ذات دلالـة ، ويجب ان تعطى حقها من العناية والدرس. وهو ما لم يحدث حتى الآن . وانني اعتقد ان العوامل التي اوجدت هـذه الظاهرة هي :

اولا : مجموعة الظروف السلبيـة التي بينتها سابقا (٥) .

ثانيا : وجود الاستعمار ، وانشاء الكيانات السياسية ذات الحـــدود والجوازات والجمارك .

ثالثا : استنفاد جيـــل « الثورة العربية » ( ١٩٠٨ ــ ١٩١٨ ) لقـواه السياسية ، ورضاه مـــن الغنيمـة بالاياب .

وكان انتشار عقد الحركات العربية السرية انهيارا « للثورة العربية » ، ذلك انها فقد القيادة الموحدة الموجهة .

---

٤ ــ حول الحركة العربية الحديثة ــ محمد عزت دروزة ج ١٠ ص ( ٨٨ ــ ٨٩ ) المطبعـة العصرية ــ صيدا ١٩٥٠ .

٥ ــ القسم السابق من هـذه الدراسة العدد ١ من السنة الثانية .

ويعزو محمد عـــزت دروزة (٦) انهيار الحركة العربية بعـــد الحرب العالمية الاولى الى الاسباب الرئيسية التالية :

١ ــ غدر الحلفاء .

٢ ــ «عدم انتظام واستمرار قوى الثورة العربية » .

٣ ــ « عدم تحلي فيصل بصفات الزعيم القوي الناضج الالمعي » .

لقد كان تبعثر الحركات القوميـة اول انتصار للتجزئة السياسية .

وفي هذه المرحلة بالذات ، لم يفقد العرب استقلالهم ووحدتهم فحسب، بل فقدوا اول جزء من بلادهم ، وهـو « عربستان » ، سنة ١٩٢٥ .

( ٣ )

وعلى الرغم من ذلك ، فقـــد كان الطموح للوحدة والاستقلال يعبر عن نفسه باشكـال مختلفـــة ، وفـــي مناسبات عديـدة ، ويمكننا الآن ان نقدم صورة عـــن بعض الاتصالات والتظاهرات .

اولا : زار الشريف حسين « ملـك العرب » عمان سنة ١٩٢٣ ، بعـد ان خدعه الانجليز واصبح وضعه فـــي مكة حرجا . وسارت وفـــود مـن فلسطين ولبنان وسورية لتحية الملك وتبادل الراي معه ، فيما آل اليه حال البلاد العربية (٧) . وصادف ان الغى اتاتورك الخلافة في هـــذه الاثناء ، فبويع الحسين بهـــا . ولكن هـذه التظاهرة لم تكن ذات اثـــر ، فقـد اضطر الحسين بعد هذا بقليل ، الى التنازل عن عرش الحجاز ، وابعد الى قبرص (٨) .

ثانيا : وانعقد فـــي بيروت سنة ١٩٢٧ فـي الثالث والعشرين مـــن اكتوبر مؤتمـــر ضم بعض وطنيـي سورية ولبنان ، ولكنه لـم يكـن ذا نتائج ايجابية ايضا .

ثالثا : التقى خلال المؤتمر الاسلامي الذي عقد فـي القدس سنة ١٩٣١ ، عدد مـــن اعضاء جمعية « العربيـة الفتاة » السابقيـن ، ورجال العهـد الفيصلي في سورية . وقـــد تداول هؤلاء في اوضاع البـــلاد العربية ، وبعد لقاءات اتفق على وضع ميثـاق قومي ، واختيار لجنة تحضيرية .

وقد تحدث البيان الذي صدر عن اللجنة التحضيرية فـــي بدايته عن مؤامرة الاستعمار علـــى القضيـــة العربية ، « ولقد كان احـــد مظاهر هـــذه المؤامرة المنكـــرة ، ووسائل انجاحها اشغال اهل كـل قطر مـــن الاقطار العربية عـــن اخوانهم فـــي الاقطار الاخرى بقضايـــا اقليميـة مصطنعة ، واوضاع محلية متقلصة ، ونكبات متنوعة ، حصرا للجهود فـــي دوائر ضيقـــة ، ومناطق محدودة ، وصرفا لها عن الامتداد الى أفق أعلى،

---

٦ ــ « حول الحركة العربية الحديثة » ــ الجزء الاول ، ص ١٢٧ .

٧ ــ صفحات من التاريخ القومي العربـي الحديث ــ الشيخ فسطنطين يني الشهيد ص ــ ١٠ ــ

٨ ــ اسرار الثورة العربية الكبرى ومأساة الشريف حسين ــ امين سعيد ط. دار الكاتب العربي ص ( ٢٥٨ ــ ٢٦٠ و ٢٧٦ ــ ٢٩٢ ) .

تتلاقى فـــي مـستواه العام القضية العربية مترابطة الاجـزاء ، متضافرة الاقسام ، جريا مـــع السنن الكونية فـــي نهضات الامـــم وارتقـــاء الشعوب » (٩) .

وذكر البيان ان المجتمعين اقـروا المواد التالية :

« المادة الاولى : ان البلاد العربيـــة وحدة تامة لا تتجزأ ، وكل مـــا طرا عليها من انواع التجزئة لا تقـره ولا تعترف به .

المادة الثانية : توجه الجهود فـي كل قطر من الاقطار العربية ، الـــى وجهة واحدة ، هي استقلالها التـام كاملة موحدة ، ومقاومة كـــل فكرة ترمي الـــى الاقتصار علـــى العمل للسياسات المحلية والاقليمية .

المادة الثالثة : لمـا كان الاستعمار بجميع اشكاله وصيغه ، يتنافى كـل التنافي مع كرامة الامـــة العربية ، وغايتها العظمى ، فان الامـة العربية ترفضه وتقاومه بكل قواها » (١٠) .

ويذكر البيان ما رآه المجتمعون من ضرورة « عقد مؤتمر عربي عام فـي احدى العواصم العربية ، للبحث في الوسائل المؤدية الـــى نشر الميثاق ورعايته ، والخطط التي ينبغي السير عليها لتحقيقه » (١١) .

اما اعضاء اللجنة التحضيرية فهم عوني عبد الهادي ، وخيـــر الدين الزركلي وصبحي الخضراء وعجاج نويهض واسعد داغر وعزة دروزة : وكان من الموقعين على البيان رشيد رضا وعلي ناصر الدين ورياض الصلح وشكري القوتلي ومصطفى الغلاييني ومحمد علي الطاهر وسعيـــد الحاج ثابت .

وزار فيصل ملك العراق عمان في هذه الاثناء ، وكان ياسين الهاشمي قد اخبر المؤتمرين بمعاضدة فيصل للمؤتمر ، فارسلوا وفدا للتفاهم معه . وقد وافق فيصل على عقد المؤتمـر في بغداد ووعـد باعطاء المؤتمرين الحرية التامة . وخشي عبد العزيز آل سعود ان يستفيد الهاشميون من المؤتمر ، فارسلت اللجنة التحضيرية الشيخ كامل القصاب لايضاح حقيقة المؤتمر للسعوديين . فوافق عبـد العزيز آل سعود على عقد المؤتمر في بغداد .

والتقى بعض الموقعين على البيان في حيفا مع الشيخ القصاب واتفقوا على امرين ، اولهما: اسماء الاشخاص الذين سيدعون لحضور المؤتمر ، وثانيهما : « عقد المؤتمر في ربيع سنة ١٩٣٣ » .

وتألفت في العراق لجنة تحضيرية مكونة من جميل المدفعـي ونوري السعيد وياسين الهاشمي وسعيد الحاج ثابت ومولود مخلص . وقد انسحب الهاشمي قبل ان تطبع بطاقات الدعوة ، فحدث تأخير فـي موعد الاجتماع . وقد مات فيصل قبل ان يعقد المؤتمر . وعلم فيما بعد

---

٩ ـ حول الحركة العربية الحديثة ج ٣٠ . المطبعة العصرية صيدا ١٩٥١ ص (٣٠١ ـ ٣٠٢)

١٠ ـ المصدر السابق ، ص ـ ٣٠٢ ـ

١١ ـ المصدر السابق ص ـ ٣٠٣ ـ

ان القنصل الانكليزي في بغداد حذر فيصل من عواقب المؤتمر .

وجرت محاولات لعقد المؤتمر في مكان اخر غير بغداد ، ولكنها كلها فشلت (١٢) .

رابعا : اجتمع بعض الوطنيين العرب مع الملك فيصل في اوروبا سنة ١٩٣١ ، داعين لاتحاد سورية والعراق . ويروى ان الملك فيصل اهتم بالامر ، واجرى اتصالات مع بعض الساسة الغربيين (١٣) . ولم يكن ممكنا أن ينتج عن مثل هذه الاتصالات شيء

خامسا : انعقد في قرنايل بلبنان مؤتمر في ٢٤ اب سنة ١٩٣٣ ، ضم بعض رجال الحركة العربية في سورية ولبنان وفلسطين والعراق . وقد صدر بيان عن المؤتمر حدد اهداف « عصبة العمل القومي » التي انبثقت عنه . وجاء في البيان ان « البلاد العربية بكليتها وطن عربي واحد ، وما احدثه الاستعمار من التجزئة الطارئة لا تقره الامة ولا ترضى به . العرب في ماضيهم وحاضرهم ومستقبلهم أمة واحدة .... » و « العروبة اخوة يتساوى فيها العرب قاطبة في الحقوق والواجبات . والقومية العربية فوق كل شيء وقبل كل شيء ، وكل ما يتعارض معها من عصبية طائفية او قبلية او اسرية مقاوم ومنبوذ ... » « القضية العربية هي انشاء الدولة العربية لتحقيق الارادة العربية العامة . الحركة العربية هي حركة بعث وتحرير وانشاء » (١٤) .

وكان لعصبة العمل القومي فروع في لبنان وسوريا والعراق . وقد بدا العمل المنظم في لبنان سنة ١٩٣٦، وكان يقود جماعة العصبة الاستاذ علي ناصر الدين . وقد ظلت العصبة تعمل حتى سنة ١٩٣٩ ، حيث أعتقل رئيسها ، وظل في السجن حتى نهاية الحرب العالمية الثانية . وحين استقال بعد الحرب ، لم يجر انتخاب خلف له ، ولم تنشط العصبة بشكل منظم منذ ذاك الحين . اما في سورية فقد اندمجت العصبة مع احزاب اخرى ، تشكل منها «الحزب الوطني» برئاسة صبري العسلي .

ولقد كانت العصبة الحركة العربية الوحيدة ، التي مارست نوعا من التنظيم ، وقامت بعمل منتظم على مستوى عربي — ولو جزئيا — خلال العقدين التاليين للاحتلال الفرنسي — الانجليزي .

— ٤ —

وكانت الحركة العربية فكريا تسير في خط مواز للعمل ، انها لم تكن سباقة ولا متفوقة ، كما لم تكن قوية وموجهة . ونستطيع ان نقدم هنا صورة حية لمضمون الحركة العربية، من خلال مجموعة من المفكرين والدعاة

١٢ — المصدر السابق ص ( ٨٤ — ٨٥ )

١٣ — العقلية العربية بين الحربين ١٩١٨ — ١٩٣٩ ) علي حاج بكري ، منشورات دار الرواد .

١٤ — الفكرة العربية في مصر — انيس صايغ — بيروت ١٩٥٩ ص ( ١٦٤ — ١٦٥ )

الذين جعلوا الوحدة والتحرر قضيتهم .

اولا : امين الريحاني . ليس لامين الريحاني دراسات سياسية ، ولذلك فنحن مضطرون للبحث عن افكاره السياسية عبر كتبه ومقالاته وخطبه. ويمكننا ان نستنتج من متابعة افكاره ما يلي :

١ ـ كان امين داعية وحدة ، ولكنه لم يحدد لها مضمونا او اطارا ، الا في وقت متأخر . كان ذلك سنة ١٩٣٤ حين كتب يقول : « ان الوحدة العربية ممكنة بل هي محققة ، ان لم تكن اليوم فغدا ، بعد سنة او بعد خمسين سنة . نعم ، هي محققة لانها مظهر من مظاهر التجدد والرقي ، ودرجة من درجات التطور القومي في كل مكان .

الاتحاد الممكن في البدء هو الجزئي اللامركزي ، لان الحكومات الحاضرة العربية ، المستقلة وشبه المستقلة، لا تتنازل ، ولا يمكنها أن تتنازل عن حقوق السيادة الاقليمية كلها .

لا يتم الاتحاد ويعم الا تدريجيا . وقد سبق الاقطار الجنوبية الاقطار الشمالية ، لان السيادة الاجنبية فيها هي اخف مما هي في الاقطار الشمالية» .

التضامن لا يقوم بغير الشعور القومي العام والتربية القومية الواسعة النطاق البعيدة المرمى . فتصبح الوطنية الاقليمية ذات قلب عربي نابض ، وصوت عربي صادق، وروح عربية شاملة .

الشعور القومي العام ، ينبغي ان ينمو وينتشر في العامة قبل الخاصة، وفي المحكومين قبل الحاكمين، فيضطر هؤلاء ، اذ ذاك ان يماشوا الشعب، او يساقوا بتياره وبعوامله الشعبية الغلابة » (١٥) .

ونراه بعد عامين يرى ان يكون لبنان : « حرا مستقلا في سياسته الداخلية وشؤونه الاقتصادية والادارية ، ومتحدا وسورية في سياسته القومية ، ومنضما الى الحلف العربي ، او بالحري متعاهدا متحالفا كقطر عربي مستقل والاقطار العربية الاخرى المستقلة » (١٦) .

٢ ـ كان الريحاني قبل الاحتلال الانجليزي الفرنسي للمشرق العربي كثير التحدث عن سورية ووحدة سورية . ولقد نادى بوحدة سورية بعد هذا التاريخ . وكان يقول ، انا لبناني سوري عربي . ومما جاء في احدى خطبه : « ايها السادة والسيدات كنت ، ولا ازال ، من دعاة الوحدة السورية اللبنانية . وقلت ، ولا ازال اقول ، ان الخير الاكبر لوطننا الاكبر، لسورية ولبنان هو في الاستقلال التام ، وفي الاتحاد التام عاجلا او آجلا . ان في الاتحاد التام الشامل الاقاليم السورية واللبنانية كلها رقي البلدين وسعادة البلدين » (١٧) .

٣ ـ وتقوم الوحدة في نظره على

---

١٥ ـ القوميات ج ٢٠ ط. اولى سنة ١٩٥٦ دار الريحاني ص ( ٨٦ ـ ٨٧ )

١٦ ـ المصدر السابق ص ـ ١٠٨ ـ سنة ١٩٣٦

١٧ ـ المصدر السابق ص ـ ٨ ـ سنة ١٩٢٨

« ثلاثة اركان جوهرية :اللغةوالقومية والمصلحة » (١٨) .

٤ ــ كان يرى ان الوحدة لا تقوم الا على أسس علمانية .

٥ ــ وكان يرى ان الاستعمار هو صانع التجزئة وحاميها .

٦ ــ وكان الريحاني يرى في الملك فيصل ملكا ديمقراطيا عصريا حكيما (١٩) ولا يبدو فيما قرانا له انه كان يفضل الجمهورية على الملكية .

لقد كان يريد وحدة ، اي شكل من الوحدة ، وفي ظل اي حاكم واي نظام حكم ، وان كان داعية اصلاح وعلمانية .

ولقد قام الريحاني برحلتهالعربية، من أجل ان يعرف العرب بالعرب ، ومن اجل ان يحقق نوعا من التضامن بين البلاد العربية . وكان ان اقترح صيغة معاهدة بين بعض الرؤساء العرب سنة ١٩٢٢ ، ولكنها لم تؤد الى نتيجة .

كان امين صديقا للملوك والرؤساء، ولكنه كان يعتقد ان الوحدة لا تتم الا بالتربية القومية العلمانية .

ثانيا : علي ناصر الدين . كان الريحاني داعية ، ولكن علي ناصر الدين كان مناضلا . وقد اشترك في اكثر النشاطات القومية التي تحدثنا عنها فيما مضى . وسنتابع هنا اراءه القومية من خلال بعض مقالاته التي جمعها في كتاب « هكذا كنا نكتب » (٢٠) مرجئين دراسة كتابه الهام « قضية العرب » الى الفقرة القادمة من هذه الدراسة ، لانه من انتاج مرحلة اخرى

١ ــ اشترك علي ناصر الدين في مبايعة الحسين بن علي بالخلافةسنة ١٩٢٣ . وكان يحترم فيصلا ويعتبره العربي الاول .

٢ ــ واشترك في الدعوة للمؤتمر العربي سة ١٩٣١ ــ كما اسلفنا ــ

٣ ــ كان يدعو لوحدة سورية دون « لبنان الصغير » ، على ان تعاد المقاطعات التي اضيفت اليه بعد الاحتلال الفرنسي الى سورية .

٤ ــ عندما طرحت فكرة « اتحاد سوري على نسق الاتحاد السويسري» يضم لبنان ، كتب علي ناصر الدين : « اننا في مقدمة رواد التفاهم والاتحاد » (٢١) .

٥ ــ ثم دعا لاعتبار لبنان « وحدة مثل بقية الوحدات العربية التيتؤلف مجتمعة الامة العربية المخلدة »(٢٢)، على اساس ان المطلوب هو ليس جعل اللبناني سوريا بل عربي .

٦ ــ يرى علي ناصر الدين ان القومية ترتكز « على التاريخ واللغة والادب والتقاليد والسلالة الغالبة والمصلحة المشتركة » (٢٣) .

---

١٨ ــ المصدر السابق ج ١٠ ص ــ ٢١٣ ــ سنة ١٩٢٨

١٩ ــ المصدر السابق ج ٢٠ ص ــ ٥٣ ــ

٢٠ ــ هكذا كنا نكتب ــ ج ١٠ مطبعة الاتحاد سنة ١٩٥٢

٢١ ــ المصدر السابق ص ( ٢٣ ــ ٢٤ ) سنة ١٩٢٥

٢٢ ــ المصدر السابق ص ١٢٩ و ١٣٤

٢٣ ــ المصدر السابق ١٣٥

٧ ـ ودعوة عمي ناصر الدين القومية علمانية نوعا ، فهو يقول مثلا: « وان يلحد احدنا بالدين ، لا يعنينا في شيء مثل ان يلحد بالعروبة»(٢٤).

ولم يكن علي ناصر الدين متناقضا مع نفسه، فهو يريد شكلا من الوحدة، تسمح به الظروف ، وان كان يطمح لاتحاد شامل .

ثالثا : عبد الرحمن الشهبندر ، كان الشهبندر من اوائل الذين حاولوا ان يعطوا مجموعة من القضايا محتوى فكريا خلال الثلاثينات . وقد عالج موضوع القومية في جملة ما عالج من القضايا كالنازية والفاشية والثورة وغيرها . وهو يرى « ان لا امة حيث لا يرتبط الافراد برابطة التشابه والتماثل » (٢٥) . ويعدد الدكتور الشهبندر عوامل التشابه ، فيذكر منها الاتصال واحتلال بقعة جغرافية واحدة ، ووحدة اللغة، ووحدة الدين، والخضوع مدة من الزمن لحكومة نظامية ثابتة ، ووحدة المصالح الاقتصادية والتقاليد والذكريات » . وهو يرى ان « الوطنية تفوق بمداها البعيد ، وشانها الخطير سائر روابط الاتصال بين الجماعات » (٢٦) . اما وحدة النسب فهو يرى « ان البيض ـ خصوصا الاريين منهم ـ افرطوا في تقويم هذه القرابة بالثمن الغالي » وان كان لا ينكر تاثيرها خاصة بالنسبة للسلالات ذات الالوان المختلفة. ويشير الدكتور الشهبندر الى « الاقوام الناشئة » واهتمامها «بعنصر القرابة» غير مكتفية بما بينها « من عناصر الاتحاد الاجتماعي الوثيق من لغة وعقيدة وعادة وتاريخ ومصالحة » ذاكرا ان « هذا مما يساعد على تقوية الائتلاف الحاضر ، وتاييد الرابطة المنشودة ، وان لم يكن جوهريا كما يدل تاليف الولايات المتحدة من عناصر متباينة » (٢٧) .

ويحارب الدكتور الشهبندر الاقليمية ، معتبرا ان بواعثها اما احقاد خلفتها القرون الوسطى ، او اغراض استعمارية لا يطمئن بالها ما لم تر سكان الشرق العربي ممزقين الى فينيقيين واشوريين وفرعونيين وبربر وعرب علاوة على تمزيقهم الى مال ونحل لا يتسع لذكرها هذا المقام » (٢٨) . ولكن هل يعني هذا انه يطالب بقيام وحدة مركزية؟ يقول هو في الاجابة على مثل هذا التساؤل: « فاذا ما طلبنا تنظيم الشعوب العربية وتقريبها بعضها من بعض ، فلا نعني ابدا اننا نريد طبع افرادها على غرار واحد ، بل نريد ان يترك للفرد فيها مجال تظهر فيه ميزاته الخاصة ضمن الوحدة العقلية الشاملة » (٢٩) .

ويعزو الشهبندر فشل « الثورة العربية » سنة ١٩١٦ الى ما يلي :

---

٢٦ ـ المصدر السابق ص ـ ٨٨ ـ

٢٤ ـ المصدر السابق ص ٥٤

٢٥ ـ المقتطف ـ المجلد الخامس والثمانون يوليو ـ ديسمبر ١٩٣٤ . القضايا الاجتماعية الكبرى ـ عوامل التجانس ( ٨٧ ـ ٩٣ )

٢٧ ـ المصدر السابق ص ـ ٨٩ ـ

٢٨ ـ المصدر السابق ص ـ ٨٩ ـ

٢٩ ـ المصدر السابق .

١ ـ قيادة الثورة كانت حميدية، وان كانت مخلصة .

٢ ـ كان الراي العام في الوطن العربي متخلفا ، ومتعلقا بالخلافة .

٣ ـ افتقاد العمل الى التنظيم (٣٠)

ويبحث الدكتور الشهبندر موضوع الدين ، وهو يرى ان : « الدين قوة دافعة من اعظم القوى » (٣١) وانه : « ظاهرة اجتماعية تلازم الجمعية البشرية ، كما تلازمها الظواهر الاخرى ، فحيثما تألف مجتمع من الافراد فمن لوازمه الاولية ظهور الاوضاع الاساسية من نظام وحكومة وادارة واقتصاد وعقيدة دينية» (٣٢). وهو يستغرب « ان يبلغ البشر هذا المقام الرفيع في الارتقاء العقلي ، وتبقى بعض العقائد والشعائر الابتدائية السخيفة ملازمة له » . ولا يخشى الشهبندر على الدين فهو « طود ثابت ما زعزعته في الماضي الثورة الفرنسية، ولا تزعزعه الثورة الكمالية ، وانما الخطر كل الخطر عليه هو الخروج به عن المنطقة التي خلق ليعمل فيها ، واستثمار النفعيين والجهلاء الاختكاريين للنفوذ الذي يتمتع بـه » (٣٣) .

٣٠ ـ المصدر السابق ـ المجلد ٨٦ . الجزء ٤ ، الثورة رقم ( ٢ ) ص ـ ٤٧٨ ـ

٣١ ـ المصدر السابق ـ المجلد ( ٨٧ ) . الجزء ٣ ، الدين والثقافة الحاضرة ص ـ ٣٠١ ـ

٣٢ ـ المصدر السابق ـ نفس الصفحة

٣٣ ـ المصدر السابق ـ المجلد ( ٨٧ ) الجزء ٥ ـ ص ـ ٦١٣ ـ



حدثت خلال العشرينات والثلاثينات مجموعة من الاحداث الهامة في الوطن العربي . ولقد كان لهذه الاحداث اثرها في تطور الفكر القومي . ولعل اول هذه الاحداث واهمها زوال عامل هام من عوامل اختلاف الحركة الوطنية في مصر مع الحركة العربية. فلقد ادى احتلال الانجليز والفرنسي للمشرق العربي ، وزوال الخلافة العثمانية ، الى وحدة المعركة مع الاستعمار ، وبالتالي الى نوع من الشعور بالوحدة الوطنية. لقد زالت اسباب الاتهام الذي كانت توجهه الى الحركة العربية الحركة الوطنية المصرية . فنضال الحركة العربية ليس ضد الخلافة ، بل ضد الانجليز الذين تقاسي مصر من اضطهادهم افظع الويلات ، او ضد الفرنسيين المستعمرين .

لم يكن غريبا والحالة هذه، ان يوجه سعد زغلول صاحب نظرية جمع الاصفار سنة ١٩١٩ في الخامس من نوفمبر سنة ١٩٢٥ بيانا الى شعب مصر ، يدعو فيه للتضامن مع سورية في ثورتها ضد الاستعمار الفرنسي قائلا : « بني وطني ... سورية التي تربطنا بها روابط وثيقة من تاريخ ولغة ودين وعادة وجوار ، نزلت بها هذه الايام حوادث هائلة » (٣٤) .

وشهدت مصر خلال هذه المرحلة نشاطا دعاويا عربيا ، قام به عدد من

٣٤ ـ الثورة العربية الكبرى ـ امين سعيد ط. اولى الجزء (٣) ص ( ٥٩٩ ـ ٦٠٠ )

ابنائها ، وتمثل اما بالدعوة لارتباط مصر بالوطن العربي ، او بالعمل عن طريق المعاهدات الثقافية وغيرها تحقيق مثل هذا الارتباط (٣٥) . ووجدت مثل هذه الدعوة مكانها في صفوف حزب الوفد فعرف بعض قادته باتجاههم العربي مثل مكرم عبيد وحمد الباسل . غير ان مصر ظلت دون حزب يقوم على اسس عربية : كما ان الدعوة العربية لم تتبلور فيها، ولم تصل الى ما وصلت اليه في المشرق العربي

وكان هذا التطور ناتجا عما يلي :

اولا : وحدة المعركة مع الاستعمار عامة ، وتطورات قضية فلسطين خاصة .

ثانيا : بدء تكون برجوازية مصرية، ذات احلام في تنمية راس المال المحلي ، وايجاد الاسواق له ، في مواجهة راس المال الخارجي * .

ثالثا : التقاء الاتجاه الاسلامي مع الاتجاه العربي في وجه الدعوات الفرعونية . وكان الدفاع عن اللغة العربية من عوامل هذا الالتقاء لان دعاة الاقليمية ، وبعض العلمانيين دعوا لاستعمال العامية .

ان مثل هذا التحول ، هام جدا ، وجدير بالاعتبار ، لاهمية مصر الجغرافية ، والبشرية بالنسبة الى الوطن العربي .

ومن ابرز هذه المرحلة الحركات القطرية التي قامت من اجل الاستقلال ، والتي نتج عنها اما استقلال مقيد كما حدث للعراق سنة ١٩٣٢ ، او معاهدات لم تنفذ . ولقد كان اضطرار الاستعمار لتعديل وضعه الاحتلالي ، امام كفاح القوى الوطنية ذا نتائج خطرة على الكفاح من اجل الوحدة والتحرر . ومن هذه النتائج قيام حكومات محلية « وطنية » . وكان قيام مثل هذه الحكومات يضع القوى الوطنية امام خصم محلي، ذي نفوذ ومصالح . وكان هذا يشل القوى الوطنية حينا ، ويفتتها حينا ، ولو لاجل محدود . وقد خلق مثل هذا الوضع عائلات حاكمة ، وحكاما محليين واوضاعا محلية ، ليس من مصلحتهم او مصلحتها تحقيق الوحدة، او التحرر من الاستعمار .

وفي هذه المرحلة بالذات مات الملك فيصل ، « امل العرب » ، وبعد قليل مات ابنه ، واصبح الوصي على عرش العراق حاكما : وكان من نتيجة هذا ، ان فقد العرب اي امل بحكام العراق . فلقد املوا من فيصل ما لم يكن كفؤا لتحقيقه . وعندما مات بايع بعضهم ابنه غازي علنا (٣٦) وامل كثير منهم ان يحقق ما لم يحققه ابوه . ولكنه مات قبل ان يحكم عليه احد بالفشل ، وفي ظروف غامضة، زادت العرب ايمانا بوطنيته . وبموت غازي لم تعد قلوب العرب تتجه الى

---

٣٥ ـ الفكرة العربية في مصر ـ انيس صايغ ص ـ ٢٢٠ ـ ٢٢٨ )

ـ مصر مجتمع جديد يبنيه العسكريون ـ انور عبد الملك ـ دار الطليعة ـ بيروت

٣٦ ـ حدث هذا في اللاذقية مثلا . انظر العقلية العربية بين الحربين

العائلة الهاشمية . ولم يكن هنالك زعيم عربي ، او حزب عربي ، يحظى بالاعتبار والتاييد على الصعيد العربي .

كانت هذه المرحلة مرحلة الاحزاب المحلية . ان «ابناء» حزب اللامركزية والعربية الفتاة والعهد ، كانت احزابا محلية ، وقد « اتخذت لنفسها صفات اقليمية من حيث الشكل والنظام والعضوية ، ان لم يكن من حيث الاهداف ايضا » (٣٧) . والجدير بالملاحظة ان هذه الاحزاب التي نشأت كان الكثير منهـا وطنيا ، ضد الاستعمار ، وضد التجزئة ، ولكنها لم تسع في هذه المرحلة للاتحاد ، ولم تقم باي عمل مشترك . ولم يكن اسهل من تكونها واندثارها ، كما لم يكن اسهل من اشتراك رجالاتها في الحكم ، وتحولهم الى اعداء للشعب، وعملاء للاستعمار .

ـ ٦ ـ

كان العقد الذي يبتدىء سنـة ١٩٣٥ ، وينتهي بعد الحرب العالمية الثانية ، عقد هزيمة وتراجع . ذلك ان كل الحركات التي قامت خلال هذه الفترة فشلت ، ومن جملتها ثورة فلسطين ( ١٩٣٦ ـ ١٩٣٩ ) . ولقد لاقت حركة الجيش في العراق سنة ١٩٤١ هزيمة ساحقة على ايدي الاستعمار البريطاني . وعلى الرغم من ذلك ، فان الفكرة القومية حظيت بالاهتمام اكثر من اية فترة سابقة . وفي هذه المرحلة بالذات صدرت اربعة كتب هامة هي :

١ ـ الـوعي القومي للاستاذ قسطنطين زريق سنة ١٩٣٨ .

٢ ـ دستور العرب القومي للشيخ عبد الله العلايلي سنة ١٩٣٨ .

٣ ـ اراء واحاديث في الوطنية والقومية للاستاذ ساطع الحصري سنة ١٩٤٤ .

٤ ـ قضية العرب للاستاذ علي ناصر الدين سنة ١٩٤٦ .

ويجب ان نذكر ان هذا الترتيب صحيح من حيث صدور هذه الكتب فقط ، اما كتابة موادها فيعود كثير منها لتواريخ سابقة . خاصة وان كتاب الوعي القومي ، وكتاب ازاء واحاديث عبارة عن مقالات كتبت في تواريخ مختلفة .

والان بماذا جاء هؤلاء ، وفيم يتفقون ويختلفون ؟ ...

لقد اتفق هؤلاء على ما يلي :

اولا : ان العرب امة واحدة على اختلاف اقطارهم ومذاهبهم .

ثانية : ان كون العرب امة واحدة يقتضي قيام دولة عربية واحدة او موحدة .

ثالثا : ان عوامل التفرقة مصطنعة، وان الدعوات الفرعونية والفينيقية وغيرهما مشبوهة ولا تثبت للنقد العلمي .

رابعا : ان الوحدة العربية تتحقق بنمو الوعي القومي ، الذي كان ما زال ضعيفا .

---

٣٧ ـ من فيصل الى جمال عبد الناصر ـ انيس صايغ م. جريدة المحرر ط. اولى ص ـ ١١٨ ـ

اما عوامل تكوين الامة فهي عند الحصري « وحدة الاصل والمنشأ ، والاشتراك في اللغة والتاريخ ، والتشابه في العواطف والعوائد ، والتماثل في ذكريات الماضي ونزعات الحال وامال الاستقبال » (٣٨)،وعند العلايلي هي اللغة والمصلحة والمحيط الجغرافي والسلالة والتاريخ والعادات (٣٩) ، وعند علي ناصر الدين «وحدة اللغة والتاريخ والادب والذكريات والتقاليد والمنافع والمطامح » (٤٠)، وعند قسطنطين زريق « اللغة والتقاليد والجهاد الماضي والمصالح الحاضرة والمقبلة » (٤١) . لقد اتفق هؤلاء جميعا على اهمية عوامل اللغة والتاريخ والتقاليد والمصالح ، وان كان العلايلي قد وضع المصلحة في المرتبة الثانية ، واغفلها ساطع الحصري نهائيا (٤٢) ، ووضعها علي ناصر الدين وقسطنطين زريق في اخر القائمة . اما السلالة ، فقد كان الموقف منها واحدا مع اختلافات في التاكيد تارة والتقليل طورا ، ذكرت في هذه التحديدات او لم تذكر . ويمكن ان نوجز اراءهم في الموضوع، بانهم لا يعتبرون السلالة الصافية ضرورية لانشاء كيان قومي ؛ ولكنهم يعتقدون بانه لا بد «من سلالةغالبة»، والعرب هم السلالة الغالبة . يقول العلايلي : « فالسلالة كانت وما تزال عاملا يشعر الامة بوحدتها . ونحن في الوطن العربي نجمع عدة عروق ثانوية لسلالة واحدة . وبما ان اقوى عرق في مجموعتها هو العرق العربي فيجب اذن جعلـــه قاعدة للقوميـة والمناداة به وحده » (٤٣) . ويرى الحصري : « ان الاعتقاد بوحدة الاصل والشعور بالقرابة يعمل عملا هاما في تكوين الامم ، سواء اكان ذلك موافقا للحقيقة ام مخالفا لها ، لان القرابة بين افراد الامم تكون قرابة نفسانية معنوية اكثر مما تكون جسمانية ومادية » (٤٤) .

كما اتفق موقف هؤلاء من السلالة اتفق ايضا من الدين . انهم جميعا يرون ان الرابطة القومية هي اقوى الروابط الاجتماعيـة ، وان الاديـان وان كان عاملا هاما سلبـا وايجابا ، فانها لا تستطيع ان تزيل الفوارق بين الاقوام الا بمقدار ما تنجح في نشر لغة من اللغات (٤٥) ولما كان

---

٣٨ ـ آراء واحاديث في الوطنية والقومية ـ ساطع الحصري ط. ٢ سنة ١٩٤٤ ص ـ ١١ ـ

٣٩ ـ دستور العرب القومي ، عبد اللـه العلايلي مكتبة العرفان ط. ٢ ص (٨٨ ـ ٩٥)

٤٠ ـ قضية العرب ـ علي ناصر الدين ـ منشورات عويدات الطبعة الثالثة سنة ١٩٦٣ ص ـ ٣٢ ـ

٤١ ـ الوعي القومي ـ قسطنطين زريق ـ دار المكشوف ط. ٢ ص ـ ٣٧ ـ

٤٢ ـ القومية العربية ـ حازم نسيبة ـ دار بيروت ط. ١ ص ( ٨٠ ـ ١١٢ )

٤٣ ـ دستور العرب القومي ص ـ ٩٣ ـ انظر ايضا : قضية العرب ص ( ٥٧ ـ ٥٨ ) والوعي القومي ص ـ ٩٥ ـ

٤٤ ـ آراء واحاديث في الوطنية والقومية ص ـ ١٩ ـ

٤٥ ـ المصدر السابق ص ـ ٢٥ ـ و ـ ٣٠ ـ

هؤلاء المفكرون يقولون بان القومية العربية لا تقوم على اساس ديني ، فانهم اضطروا حتى لا يحرجوا امام الجماهير المؤمنة ، وبسبب تكوينهم الاجتماعي والفكري ، ان يؤكدوا بان القومية لا تتعارض مع الدين ، وقد ذهب العلايلي الى انه ليس « بالامكان اقامة صرح قومي بعيدا عن الدين » (٤٦) ، وذهب قسطنطين زريق الى ان القومية الحقيقية « ليست في جوهرها سوى حركة روحية ، ترمي الى بعث قوى الامة الداخلية وتحقيق قابلياتها العقلية والنفسية ، لكي تقدم الامة قسطها من تمدن العالم وحضارته . فلا بد للقومية اذن ـ وهي حركة روحية ـ من ان تلاقي الدين ، وان تستمد منه القوة والحياة والرفعة والسمو » (٤٧) .

ولا بد من ان نشير الى ان هناك مسألتين هامتين شغلتا اذهان بعض المفكرين في هذه المرحلة، ونالتا مزيدا من الاهتمام بعدهما ، هاتان المسألتان هما :

اولا : مسالة الرسالة العربية .

ثانيا : مسألة الفلسفة القومية .

ويعتبر قسطنطين زريق « ان الغاية القصوى لاية امة من الامم، انما هي الرسالة التي تؤديها هذه الامة للثقافة الانسانية والتمدن العام » (٤٨) .وما « الاستقلال والوحدة » الا « وسائل لهذه الغاية » (٤٩) . اما هذه الرسالة فليست مما على العربي ان يختاره ذلك : « ان محيط امته الطبيعي ، وتاريخها الخاص قد اهلاها لمهمة لم تتوافر شروطها لاية امة اخرى ، وان القوة المدبرة وراء هذا الكون قد اعدت العرب لامر لا يستطيع اي شعب اخر ان يقوم به دونهم » (٥٠) . ويذكر علي ناصر الدين ان للقوميين العرب رسالة(٥١) ويسمي الاسلام « الرسالة الخالدة » (٥٢) . ويتحدث ساطع الحصري عن حيوية الامة العربية (٥٣) .

ولقد أهتم زريق والعلايلي بموضوع الفلسفة القومية . ويرى زريق انه « ليس من امل للنهضة القومية العربية ، ما لم تكن مستمدة من فلسفة قومية تصور روحها وتحدد اتجاهها ، وتنصب لها الاهداف ، وتعين لها السبل والوسائل » (٥٤). اما العلايلي فيرى انها حاجة وانها ضرورة « لانها القوة التي تمد المبادىء بالحرارة وتمس الاوضاع بفيض الحيوية ، وتضيف اليها عنصر البقاء والمقاومة . ففائدة الفلسفة المذكورة هي انها قوة حافظة للقضية من ان تمزقها الاعاصير ، مهما كان من عنفها

---

٤٦ ـ دستور العرب القومي ص ـ ١٢٧ ـ

٤٧ ـ الوعي القومي ص ـ ١٢٧ ـ

٤٨ ـ المصدر السابق ص ـ ٥٢ ـ

٤٩ ـ المصدر السابق ص ـ ٥٢ ـ

٥٠ ـ المصدر السابق ص ـ ٥٢ ـ

٥١ ـ قضية العرب ص ـ ٢٣ ـ

٥٢ ـ المصدر السابق ص ـ ٥٩ ـ

٥٣ ـ آراء واحاديث ص ـ ٩٣ ـ

٥٤ ـ الوعي القومي ص ـ ١٩ ـ

اليوم ، وبعد اليوم » (٥٥) .

ويؤكد علي ناصر الدين وعبد الله العلايلي على اولوية الاتحاد على الوحدة ، وبينما يكتفي علي ناصر الدين بالدعوة للاتحاد فقط ، على اساس انه « افضل اليوم للعرب من اي نوع من « الاتحادات » ، و«افضل من وحدة «الذوبان» » (٥٦) ، يذهب العلايلي الى « ان التماثل الاجتماعي لم يتحقق بعد بين هذه المجموعات العربية الكثيرة ، وان قيام الصحراء اللوبية يجعل منها مجموعتين كبيرتين، المجموعة المغربية والمجموعة المشرقية» . و « في المجتمع العربي العريض الجوانب تفاوت الى درجة كبيرة في الصفة ، فلا بد ليكون مجتمعا راسخ الدعائم من العمل على احلال التماثل محل التفاوت » . وهذا ما يجعله لا يضيق بالاقليمية ، لان « العرب فيما قبل دور التحرر والتماثل في حل من الاقليمية في ظل الفكرة العربية العامة كشعار مشترك ، وانها جزء من قومية لا قومية تامة ، حتى اذا ما تماثلوا دخلوا في كيان طبيعي عفوي » (٥٧) ولهذا كله لا يؤيد العلايلي تحقيق الوحدة بواسطة القوة العسكرية لانه « ليس من المنتظر واليمن ونجد والبحرين مثلا لم تشبع بالفكرة العربية عبر التخوم الداخلية الموهومة أن تلبي بدون مقاومة عنيفة ، فلكي نحفظ هذا الدم العربي من ان يسفك نترك العمل للزمن ، على ان نظل جاهدين في العمل من ناحية ثانية على رفع مستوى العرب الفكري الاجتماعي بشتى الوسائل » (٥٨) ، « ووجود صفة التماثل لا يعني ان الكيان العربي يتم بدون ان تهرق قطرة من دم ، وانما المعنى ان كمية الدماء تكون قليلة بالنسبة اليها مع وجود صفة اللاتماثل ، ويكون الكيان اصح قاعدة واثبت دعامة » (٥٩) .

لقد بلغ الفكر القومي كما نرى درجة من النضوج والتكامل . ويجب ان نذكر ان هذا التكامل تم في ظل الظروف التالية :

١ ـ احتدام المعارك الاستقلالية مع المستعمرين .

٢ ـ تأزم الوضع في فلسطين وانفجار ثورة ( ١٩٣٦ ـ ١٩٣٩ ) ، وما نتج عن ذلك .

٣ ـ قيام حركة الضباط الاستقلالية في العراق سنة ١٩٤١ ، واسقاط بريطانيا للحكم الوطني بالقوة .

٤ ـ تحدي النازية والفاشية للاستعمار البريطاني، تحديا استقطب مشاعر العرب، وبعث في جماهيرهم الامل في الخلاص العاجل .

٥ ـ صعود نجم البرجوازية ، كبيرة ومتوسطة وصغيرة ، نتيجة التطور السياسي والاقتصادي الذي

٥٥ ـ دستور العرب القومي ص ـ ٧ ـ

٥٦ ـ قضية العرب ص ( ٢٥ ـ ٤١ ـ ٤٢ ـ ١٢٦ ـ ١٣٣ )

٥٧ ـ دستور العرب القومي ص ( ١١٦ ـ ١١٨ )

٥٨ ـ المصدر السابق ص ـ ١١٩ ـ

٥٩ ـ المصدر السابق ص ـ ١١٩ ـ

نتج من وجود الاستعمار الانكلو ـ فرنسي .

ولقد شهدت هذه المرحلة نكبة قومية ثانية ، انها استيلاء تركيا على لواء الاسكندرون السليب سنة ١٩٣٩ .

٧

استقلت مع نهاية الحرب العالمية الثانية سورية ولبنان ، وقامت الجامعة العربية ، استجابة لتصريح من ايدن وزير خارجية بريطانيا . ومع نهاية الحرب بدأت قضية فلسطين تزداد حرجا .

وكانت انظمة الحكم « الوطنية » تثبت كل يوم ارتباطها بالاستعمار ، والقلة المستغلة العاملة في خدمته .

ولقد ثبت للعرب ان الفئات الحاكمة عميلة الاستعمار ، ليست قادرة على تحقيق استقلال صحيح ، وليست جادة في موضوع الوحدة. وكان من نتيجة ذلك ان بدأ تلمس السبيل السليم لتحقيق التحرر والوحدة .

بعد اغتصاب لواء الاسكندرون تجمع بعض ابنائه الهاربين في دمشق، وشكلوا ما يمكن ان يسمى « حلقة قومية » . وتجمع سنة ١٩٤١ عدد من الشباب في دمشق ايضا لنصرة ثورة العراق في حلقة قومية اخرى، اصدرت عددا من المنشورات باسم «حركة الاحياء العربي» . ثم التقت الحركتان ، واندمجتا في « حركة البعث العربي » سنة ١٩٤٢ . تركز معظم نشاط الحركة على اصدار المنشورات حتى سنة ٤٥ ـ ولكن كان هناك بعض النشاط الجماهيري ـ وقد اعلم الحزب الحكومة بتاسيسه رسميا في تموز ١٩٤٥ ( اول مرة استعمل الحزب اسم « حزب البعث العربي » كان في ايار ٤٥ . وصدرت في السنة التالية جريدة الحزب الاولى « البعث » .

وقد انعقد سنة ١٩٤٧ المؤتمر التاسيسي الذي صدر عنه دستور الحزب .

وسوف نقدم ها ملخصا لافكار الحزب ومبادئه فقط دون التاريخ له تنظيميا (٦٠) :

اولا : ان الحزب تجاوز مرحلة اثبات وحدة الامة العربية ،باستعمال كل الشواهد والدلائل ، كما فعل المفكرون القوميون في المرحلةالسابقة، فانطلق من اعتبار وحدة الامة العربية حقيقة ثابتة ، واعتبار جميع الفوارق القائمة بين اجزاء الوطن العربي مصطنعة وزائفة . ولهذا نص في دستوره على انه « حزب عربي شامل تؤسس له فروع في سائر الاقطار العربية » .

ثانيا : لم يخرج الحزب على اطار الفكر القومي في هذه المرحلة من حيث التحديد « القومي » لمعنى الوحدة ، وان كان قد خرج من حيث تحديد المضمون السياسي والاجتماعي. راينا ان المفكرين القوميين لم يولوا

٦٠ ـ يراجع بهذا الشان كتاب الثورة والجماهير للمؤلف ـ اصدار دار الطليعة ـ بيروت ( ١٩٦٢ )

قضية نظام الحكم والحياةالاجتماعية اهمية تذكر ، فلقد كانوا « ملكيين » على الاغلب ، ودعاة اصلاح غائم ، فاصر حزب البعث على نظامجمهوري نيابي ، ورفع شعار « الاشتراكية العربية » .

ثالثا : اصبح موضوع « الرسالة الخالدة » موضوع تأكيد ، وزاد الالحاح على شخصية الامة العربية المميزة وقدرتها على الخلق والتجدد والابداع ، وهذه الرسالة ليست شيئا جديدا ، انها بنت تاريخطويل، وقد عبرت عن نفسها في اشكال مختلفة . ذلك : « ان هذه الامة التي افصحت عن نفسها ، وعن شعورها بالحياة افصاحا متعددا متنوعا في تشريع حمورابيوشعر الجاهليةودين محمد وثقافة عصر المأمون ، فيها شعور واحد يهزها في مختلف الازمان ، ولها هدف واحد بالرغممن فترات الانقطاع والانحراف » (٦٢). هذا هو معنى رسالة الامة العربية من حيث هي استعداد ونزوع ،ومن حيث هي حلقات حضارية فيالتاريخ اما في الحاضر : « فان الرسالة العربية اليوم هي في ان يتطلعالعرب الى بعث امتهم . فهذا خير ما يقدمونه للانسان ، لان القيم الانسانية لا يمكن ان تخصب وتثمر الا في امة سليمة . فعلى العرب ان يحيوا حاضرهم حتى يستطيعوا ضمان حياة مستقبلهم ، لان المستقبل لن ياتي ما لم نتوصل الى ان نحيا حاضرنا بآلامه ومآسيه . انالرسالة العربية الخالدة هي في هذا الحاضر وتلبيـــة ندائـــه ، والاستجابة لضروراته » (٦٣) .

ولم يكنالاعتقاد بتميز الامةالعربية يعنينزعةعنصريةمعاديةللامم الاخرى، فلقد ساد الحزب اعتقاد بأن الرسالة العربية انسانية بروحها . ولكن هذا لم يحل دون اعتبار الامة العربية مهيأة اكثر من غيرها لحمل هذه الرسالة . وقد استند هذا الاعتبار الى :

١ ــ مقدرة الامة العربية على التجدد والخلق .

٢ ــ عمق التجربة العربيةالمعاصرة والالام التي صحبتها .

رابعا : يرفض الاستاذ ميشيل عفلق « بحث القومية على الاسلوب الاوروبي » ، ويرفض التعريفات العامة الزائفة التي « يصح ان تقال عن فرنسة القرن الثامن عشر وعن اليونان في عهد افلاطونوعنالعروبة» (٦٤).غير انه لا يضع تعريفا محددا. فالقومية العربية هي « تذكر حي » يعيد للعرب صلتهم المباشرة بطبعهم الصافي الاصيل ، كما انها « التربة التي تنمو فيها مواهب امة ما » الى

---

٦١ ــ سانناقش هنا فكرة الحزب العربية ، تاركا ما تبقى الى ابحاث قادمة .

٦٢ ــ في سبيل البعث ــ ميشيل عفلق ــ ط. ١ ــ دار الطليعة ص ( ٧٧ و ٧٩ ) حول الرسالة العربية .

٦٣ ــ المصدر السابق ص ــ ٨٢ ــ

٦٤ ــ المصدر السابق

غير ذلك من « التعريفات » . وقد حاول الاستاذ ميشيل عفلق ان يفرق بين القومية ومحتواها . ذلك ان القومية « واقع بديهي يفرض نفسه دون حاجة الى نقاش أو نضال ، اما مجال الاختلاف وضرورة النضال فهما في محتوى هذه القومية ، هذا المحتوى المتطور الذي يحتاج في كل مرحلة من مراحله الى نظرية قومية تلائمه » (٦٥) . وكان من نتائج مثل هذا التفكير محاربة الاممية اطلاقا ، واعتبار ان المستقبل هو مستقبل شعوب اشتراكية متعاونة . وقد بلور هذه النظرة فيما بعد الدكتور عبد الله عبد الدائم الذي فرق بين الاممية والانسانية . فالاممية «نصل اليها بقتل الفكرة القومية لا بتوسيعها»، اما الانسانية فهي « اتساع للفكرة القومية ونتيجة لنضجها » (٦٦) . لقد رفضت الاممية اولا ، ثم طرح بديل لها ، وهو «قيام مجتمع انساني متآخ تسود بين كتله القومية روابط التفاهم » (٦٧) .

وكان اهم ما ساهم به الحزب في تطوير الفكر القومي :

١ ــ الدعوة لوحدة عربية شاملة ، لا لاتحاد أو تضامن ، بالقضاء على عوامل التجزئة ، ومنها تعدد العائلات الحاكمة، بواسطة النضال الجماهيري، لا باللجوء الى هذا الحاكم او ذاك ، اصر « البعث » على ان الجماهير العربية هي التي ستحقق الوحدة ، لا الحكام ولا الملوك ولا الطبقات الحاكمة . وكانت الدعوة للوحدة مرتبطة بالدعوة للتحرر من الاستعمار، والتحرر من الاستغلال الطبقي .

٢ ــ انشأ الحزب فروعا في عدد من الاقطار العربية ، متحديا الحدود والحواجز . وكانت هذه الفروع مرتبطة بقيادة قومية مقرها دمشق وبيروت ( ١٩٥٩ ــ ١٩٦٢ ) . ولم يكن الحزب الرائد في هذا المجال ، فقد سبقته حركات ( ١٩٠٨ ــ ١٩٢١ ) ثم عصبة العمل القومي ، ولكن تجربته كانت اعمق واوسع .

وعلى الرغم من كل ذلك فلا بد من ابداء الملاحظات التالية :

اولا : كان انتشار الحزب في بلاد الشام ( لبنان ، سورية ، العراق ، الاردن ) سريعا ، وواسعا بالنسبة للاقطار العربية الاخرى ، بينما كان انتشاره محدودا في اوساط ابناء الجزيرة العربية واليمن ، وضئيلا جدا في الاقطار العربية الاخرى ، باستثناء ليبيا التي لقي فيها بعض القبول .

ثانيا : كان الحزب مكونا من « اقطار » ، القطر العراقي ، القطر السوري الخ ، وكانت هذه الاقطار على اختلاف مستوياتها ( قطر ، فرع شعبة ، فرقة ) تابعة للقيادة القومية. وقد اعطى النظام الداخلي القيادة القومية صلاحيات قيادة مركزية ،

---

٦٥ ــ المصدر السابق ص ــ ٢١١ ــ

٦٦ ــ دروب القومية العربية ــ الدكتور عبد الله عبد الدائم ــ دار الاداب ط. اولى ١٩٥٧ ص ــ ٩٦ ــ

٦٧ ــ المصدر السابق ص ــ ٩٦ ــ

ولكن الذي حدث عمليا ، وحتى سنة ١٩٥٩ خاصة ، هو ان « الاقطار » كانت تمارس القيادة في ظل مراقبة القيادة القومية الاسمية فقط .

ثالثا : لا يبدو ان الحزب يؤمن بحرب التحرير الوحدوية، التي تنطلق متجاوزة الحدود السياسية القطرية. ولقد اشترك في مقاومة اوضاع التجزئة بوسائل مختلفة كالمظاهرات والاضرابات والانقلابات العسكرية والدعاوة السياسية دون الثورة الشعبية التحريرية .

## ٨

قامت بعد الحرب العالمية الثانية محاولتان اخريان ، اولهما محاولة انشاء « جامعة عربية شعبية » سنة ٤٦ — ٤٧ ، وهي محاولة دعا لها حزب البعث في عدد من منشوراته ثم حزب الاستقلال في العراق، الذي دعا عدداً كبيرا من المنظمات والاحزاب العربية للمساهمة في انشائها. ولكن المحاولة منيت بالفشل بعد اتصالات ومفاوضات . وكان من اسباب فشلها مقاومة الاوساط الحاكمة لها (٦٨)، وثانيهما حركة القوميين العرب. وقد سارت حركة القوميين العرب في خط موازٍ لحركة البعث ، ولم يكن وجه الخلاف بينهما يدور حول تعريف القومية ، او حول تحديد معنى العروبة ، بل كان الخلاف بينهما بادىء ذي بدء منصبا على محتوى الوحدة العربية ، هل تكون وحدة ذات محتوى اشتراكي اولا ...

ولقد كان القوميون العرب يرون ان تحقيق اطار الوحدة السياسي ، يجب ان ينال الاهتمام كل الاهتمام، على ان يحدد الشعب العربي المحتوى الاجتماعي للوحدة بعد ان يتم اطارها السياسي . ولكن حركة القوميين العرب تجاوزت هذه المرحلة فيما بعد ، فرفعت شعار الاشتراكية مقرونا بشعار الوحدة . وفي هذه المرحلة اصبح وجه خلاف الحركة مع البعث ينصب على قضية الوحدة، وكيف يجب ان تتم .

لم تستطع الحركة ان تتوسع في الانتشار . والملاحظ انها وجدت بعض القبول في المناطق التي وجد البعث القبول فيها ، وظلت بعيدة عن المناطق التي ظل بعيدا عنها . ثم انها — ومنذ سنة ١٩٥٨ — تعيش على هامش « الناصرية » . تفسر وتبرر ما يصدر عن القاهرة دون ان يكون لها موقف نقدي ، باستثناء ما نشرته جريدة الحرية من مقالات بعد الانفصال . وقد حلت نفسها في العراق وسورية لتكون ضمن قوى « الاتحاد الاشتراكي العربي » . ولا يعرف كيف ستتجه تنظيميا بعد فشل الاتحاد الاشتراكي العربي في العراق.

## — ٩ —

ولعل الناصرية اخطر التيارات القومية واكثرها اهمية مع انها لم تقدم مضمونا جديدا للحركة القومية، ذلك ان كتابها لم يضيفوا الى الفكر العربي شيئا ، ولا نكون مبالغين اذا

٦٨ — مذكراتي — في صميم الاحداث ١٩١٨ — ١٩٥٨ ، محمد مهدي كبة ص — ١٩٦ —

قلنا ، بانهم نهلوا من معين الحركات العربية التي ذكرناها دون سواها . وليس هنالك خلاف بين تحديد « البعث » للقومية العربية وتحديد الناصرية لها بشكل عام ، وان كان هنالك خلاف الان حول موضوع الوحدة ذاتها ، بل حول اساليب الوحدة ذاتها ، بل حول اساليب تحقيقها . ويجب في هذا المجال ان نذكر الملاحظات التالية :

اولا : « الناصرية » حركة محلية المنشأ ، محلية الاداة ، ولكنها تلقى تجاوبا جماهيريا واسعا في الوطن العربي .

ثانيا : ترفع الجمهورية العربية المتحدة شعارات مختلفة تتعلق بموضوع الوحدة وتضع شروطا لتحقيقها اهمها ضرورة وجود اجماع شعبي عام للوحدة ، ووجود وحدة وطنية في داخل القطر الذي يطلب الوحدة ، ووجود نوع من التماثل في الظروف السياسية ، مثل ( وجود اتحاد اشتراكي ، السير في طريق الاشتراكية الخ . ) .

ثالثا : ان الاتجاه الرسمي يعتبر الجمهورية العربية المتحدة « القطر ـ النموذج » ويرى ، ان الوحدة العربية تتم دون ان تصدر مصر الثورة «الى غيرها من البلاد العربية» لانها « بتجربتها تضع نموذجا للثورة » (٦٩) .

رابعا : دعا عبد الناصر لقيام حركة عربية واحدة ثورية شاملة ، ولكن الدعوة ذهبت مع الريح ، واكتفي بانشاء « اتحادات » في العراق وسورية . ومع ان هذه «الاتحادات» هي ممثلة الناصرية خارج الجمهورية العربية المتحدة ، فانها تشكل وحدات قطرية ضعيفة لا رابط بينها ، وفي قطرين عربيين فقط ، كما انها لم تستطع حتى الان ان توجه جماهير الناصريين ، ولا يبدو انها ستستطيع في المستقبل .

خامسا : طرحت الجمهورية العربية موضوع الوحدة باشكال مختلفة منها مثلا « وحدة الهدف قبل وحدة الصف » ومنها ايضا « وحدة، اتحاد، تضامن » . وهي الان ـ ومنذ مؤتمر القمة الاول ـ لا تطرحها باي شكل من الاشكال .

ان التاييد الذي تتمتع به الجمهورية العربية المتحدة مهدد بالتبعثر والضياع ، اذا لم تستطع ان توجد تنظيما شعبيا عاملا في جميع الاقطار العربية ، تقوده قيادة واحدة ، ويوجهه ميثاق عمل واحد .



هل نخطىء اذا قلنا بان الحركة العربية منذ سنة ١٩٢٠ فشلت في التغلب على عوامل الانتكاس القومي؟ لا اعتقد ذلك .

ويمكن ان نحصر عوامل الفشل فيما يلي (٧٠) :

---

٦٩ ـ الاهرام ، السنة ٩٠ ، العدد ٢٨١٦١ ، الجمعة ١٧ يناير ١٩٦٤ ـ بصراحة محمد حسنين هيكل

٧٠ ـ هذا بالاضافة للعوامل التاريخية التي حددناها في الجزء السابق من الدراسة العدد ١ ـ سنة ٢ « دراسات عربية »

اولا : رسوخ التجزئة باعطاء « الكيانات » صفة قانونية وشرعية ، ولقد اصبح مواطنو هذه «الكيانات» يحملون جنسيات مختلفة، ويتعاملون بقوانين مختلفة ، ويدرسون في مدارس مختلفة ، ويخضعون لتوجيهات اقتصادية وسياسية واجتماعية مختلفة . وكان من نتيجة ذلك ان حدد اطار مصطنع لحياة المواطنين ، لم يكونوا قادرين على تجاوزه . في مثل هذا الجو قام عدد من الاحزاب الوطنية ، ولكنها كلها كانت « قطرية » . انها تنشأ في قطر، وتعمل لاجل تحرره واستقلاله ، والجدير بالذكر أن نسبة الاحزاب العربية التي نشأت بالنسبة للاحزاب القطرية لا تكاد تذكر . وفي مثل هذا الجو ايضا ترعرعت النزعات والدعوات المعادية للعروبة كالفرعونية والفينيقية وغيرهما . ان « الكيانات » القطرية تزداد كل يوم اكتمالا ، وتتبلور معالم شخصيتها « الدولية » ، مع ان الوعي العربي يزداد . ولعل التكوين القطري للحركات السياسية ، والانقلابات العسكرية القطرية من اهم اسباب تكسة الوحدة .

ثانيا : لم تنشأ حركة قومية عربية واحدة ، ذات قواعد منظمة في كل قطر ، وذات ميثاق عربي شامل .

ثالثا : كان طابع « الثورات » ضد الاستعمار او ضد الاقطاع والبرجوازية التجارية «قطريا» . وكانت «الثورات» قطرية في اداتها ، قطرية في دائرة عملها . لم تقم ثورة عربية واحدة في قطر ، بعد الاحتلال البريطاني الفرنسي، وامتدت الى اقطار اخرى، حتى عندما كانت الظروف ملائمة لمثل هذا الامتداد ، كما حدث سنة ١٩٥٤ عند انفجار ثورة الجزائر مثلا . لماذا لم تكن ثورة الجزائر قادرة على ان تلتقي مع ثورة «المغرب»، وثورة تونس ، لتتحول الى ثورة عربية شاملة ؟ ولماذا قبل ذلك لم تتحول اعمال المقاومة المحلية الى حركة عربية واحدة مع ان انفجارات كانت تقع هنا وهناك وفي وقت واحد ، احيانا . ولماذا لا تستطيع «الاقطار العربية المتحررة» ان تتلاقى الان على طريق الوحدة ؟!

ان انكماش « الثورات » ضمن الحدود التي خططها المستعمرون ، هو اخطر دلالة على عدم توافر قاعدة شعبية موحدة للوحدة العربية .

اما اسباب هذا كله فهي :

١ ــ التكوين شبه الاقطاعي للوطن العربي . ولقد كانت الزعامات المحلية قبل الاحتلال الاجنبي زعامات «عشائرية» تتوسع او تنكمش في معركتها مع جيرانها . وحين انشئت الكيانات السياسية الحديثة ، نشأت معها « اقطاعية ــ سياسية » ، مكونة من الاقطاعيين والبرجوازية التجارية ثم البرجوازية الصناعية والوسطى فيما بعد . ولم تكن لهذه «الاقطاعية ــ السياسية » مصالح او مطامح ابعد من الحكم القطري والمحافظة على المصالح القطرية

٢ ــ وجود اشكال من الاستعمار،

ومحاربة الاستعمار لاي شكل من الوحدة .

ويجب ان نذكر ها ان الفكرة القومية العربية ، لم تنم ولم تكتمل الا مع البرجوازية ( تجارية وصناعية وصغيرة ) في الوطن العربي . فليس غريبا والحالة هذه الا تنشأ الاحزاب، القومية الا في الثلاثينات والاربعينات، وبعد الحرب العالمية الثانية خاصة . الا ان وضع البرجوازية ( تجارية وصناعية ) حرج في هذه الايام، التي تقفز فيها البرجوازية الصغيرة الى السلطة ، فهي مضطرة لان تكون ضد الوحدة ، وحليفة الاستعمار ، دفاعا عن مصالحها ومواقعها الاخيرة . انها في حالة دفاع ، وهي تبني متاريسها وراء حدودها القطرية . اما البرجوازية الصغيرة ، فهي ضعيفة وغير متماثلة على المستوى العربي ، وغير منظمة وهذا ما يجعلها عاجزة عن قيادة معركة الوحدة بنجاح . وعلى العرب ان ينتظروا نمو البرجوازية الصغيرة، وتحالفها المصيري مع الفلاحين والعمال ، وقيام حزب هذا التحالف، على صعيد عربي شامل ، حتى يروا طيف الوحدة العربية الشاملة .

في العدد القادم : « التجارب الشيوعية في الوطن العربي »

---

* يجب الاعتذار هنا عن الايجاز ، الذي اضطررت له في اخر المقال .


قريبا :

**التطبيق الاشتراكي في يوغوسلافيا**
**التسيير الذاتي وادارة التعاونيات**

تأليف

**جورج لاسير**

ترجمة وتقديم

**نهاد رضا  الدكتور عدنان شومان**

مع ملاحظات حول التسيير الذاتي والادارة الديمقراطية في سورية

**كتاب يحلل تجربة يوغوسلافيا في مجال التسيير الذاتي في الصناعة والسياسة الزراعية الجديدة ، ودور التعاونيات في التجربة الاشتراكية اليوغوسلافية**

# تطوّرات الحركة العربيّة مُنذ بَدْء النهضة

ناجي علوش

## ثانيا : الحركة العربية حتى الحرب العالمية الاولى ١٨٥٠ ـ ١٩٢٠

**حقق بنو أمية عروبة الحكم ، ولكن ما حققوه تعرض للهدم خلال خلافة بني العباس ، فلقد افسح هؤلاء المجال للفرس اولا ، وللاتراك ثانيا لاعتلاء كراسي السلطة ، ولم يبق للخليفة بعد المعتصم الا الاسم . وقد صاحب استيلاء الاعاجم على السلطة في بغداد ، تبعثر اصاب جسم الخلافة، فاختت الولايات تستقل، وقامت الثورات ، التي كثيراً ما اصبحت تهدد بغداد . وفي مثل هذا الجو عادت الروح القبلية الى الانتشار ، وكانت القبائل تسعى نحو مزيد من الاستقلال ، على حساب السلطة المركزية او المحلية .**

وحين غزا «العثمانيون» البلاد العربية ، كان يحكمها « المماليك »على الاغلب ، الا بعض الامارات العربية هنا وهناك . وقد حكمها بعد ذلك ولاة اتراك،ممثلين للخلافة في اسطنبول.

وكان الشعور الاسلامي قويا بعد الحروب الصليبية ، وبعد سقوط الاندلس ، وقد اصبح الاسلام دين العرب ودستورهم،وقانون معاملاتهم، وثقافة حياتهم . ولم يكن ينازعه الا بعض العادات والتقاليد البدوية . وقد رضي العرب بخلافة بني عثمان نتيجة عوامل ثلاثة :

الاول : جمود العرب وتمزقهم .

الثاني : شعورهم الاسلامي ، واعتقادهم بأن الخلافة «اسلامية».

الثالث : حرص العرب على الاسلام ، ازاء الاخطار التي كانت تتهددهم، مع بداية الغزوات الاجنبية.

ولقد شجعت الاوضاع الجديدة، التي اوجدها بنو عثمان ، على نمو الروح القبلية .

فلقد كانت الارستقراطية العربية الحاكمة ، تحتقر الاعاجم ، وكانت القبائل العربية، حريصة ما استطاعت على عاداتها وتقاليدها ، وحريصة

ايضا على عدم الاختلاط بالاجانب ، خوفا على انسابها . وما زالت هذه الروح موجودة حتى الان . ولكن هذه الروح القبلية ، لم تكن ترضى بالاسلام بديلا ، وان كان البداة مسلمين على طريقتهم الخاصة .

كانت الاحداث تتوالى على السلطنة العثمانية ، وكانت تواجه الغزو الخارجي ، كما تواجه حركات التمرد الداخلية . وكانت الدولة تحمل بذور ضعفها في تكوينها ، فهي تمتد عبر مساحات شاسعة ، لا تربط بينها طرق مواصلات ، وتضم شعوبا مختلفة وان كان أكثرها من المسلمين . وكان نظام الحكم يعتمد على انكشارية عسكرية ، والخلفاء لا يصلون الى السلطة الا عبر الشكوك والدماء . وقد رافق قيام هذه الدولة الواسعة الارجاء بدء الغزو الاوروبي للشرق ، فلم يكن الروس هم الاعداء الوحيدين المتربصين على حدود السلطنة ، بل كان هنالك ايضا البرتغاليون والاسبان والانجليز والفرنسيون الذين بدأوا يبحثون عن المستعمرات . وازاء هذا كله لم تستطع السلطنة ان تستقر . وكانت سنة ١٦٨٣ ، وهي السنة التي حاول فيها الاتراك عبثا احتلال فينا للمرة الثانية والاخيرة ، نقول ان هذه السنة كانت بداية تقهقر ، بعد ان ظل الاتراك مدة قرون اربعة ينتقلون من نصر الى اخر . « كان الخط البياني لتقهقر الاتراك يسير باستمرار في خط منحدر ـ باستثناء فترات قصيرة ـ الى ان قضي على السلطنة اثناء الحرب العالمية الاولى » (١) .

ويعطينا الدكتور فيليب حتي في كتابه ( لبنان في التاريخ ) ، وساطع الحصري في كتابه « الدولة العثمانية والبلاد العربية » صورتين عن الاوضاع في البلاد العربية خلال الحكم العثماني ، يمكن الاكتفاء بهما لاظهار ما وصل اليه الوضع من تفكك واحتراب واضطراب . ولقد كان من مظاهر هذا الوضع « استقلال كثير من الاسر والامراء في المناطق التي يتمتعون فيها بالنفوذ ، فنجد آل الجبار في السلمية ـ وهم شيوخ العرب ما بين الرقة وحلب ـ وآل الحزفوش ـ وهم رافضة ـ في بعلبك ، وآل معن في لبنان ، ثم خلفهم آل شهاب . وفي طرابلس آل حمادة ، والامير الحارثي بن طرباس في جبل عجلون ، وابن قروخ في نابلس ، والامير احمد بن رضوان في غزة » (٢) . ويعتبر الدكتور ضياء الريس ، ان هذه ظاهرة تميز بها تاريخ الشام ، في كتابه « تاريخ الشرق العربي والخلافة العثمانية اثناء الدور الاخير » . والواقع ان هذه الظاهرة عمت الوطن العربي كله . وقد حفظ لنا التاريخ اخبار الكثير من الحركات والتحالفات القبلية

١ ـ لبنان في التاريخ ـ فيليب حتي ـ ترجمة الدكتور انيس فريحة ـ اصدار دار الثقافة ببيروت بالاشتراك مع مؤسسة فرنكلين ط. سنة ١٩٥٦ ص ـ ٤٤٧ .

٢ ـ تاريخ الشرق العربي والخلافة العثمانية اثناء الدور الاخير ـ الدكتور ضياء الريس ص ـ ٧١ .

العربية ، التي قامت في جميع ارجاء الوطن العربي . وكانت كل حركةمن هذه الحركات تحاول ان تمد نفوذها على ما حولها ، ولكنها كانت تبوء بالفشل ، لانها ذات طابع قبلي اولا ، ولان الخلافة وولاتها كانوا لمثل هذه الحركات بالمرصاد . ثم ان هذه الحركات لم تكن ذاتاهداف سياسية واضحة . وعلى الرغم من ذلك ،فهي اولى محاولات « التوحيد » التي شهدها الوطن العربي . ولم تفلحاية محاولة من هذه المحاولات فيان تحقق نصرا كبيرا ، او تعيش عمرا طويلا . وكانت هذه الحركات القبلية في صراع مستمر مع الخلافة وولاتها، وفي احتراب فيما بينها ، دون ان تحدد لنفسها دورا سياسيا غير تحقيق النفوذ المحلي لامير او قبيلة. وكان الصراع القبلي القديم بين القيس واليمن يلعب دورا في الخصومة ، بينما كانت تلعبالطائفية دورا آخر . وكان من عوامل هذه الخصومات ايضا ، تحريضاسطنبول لامير على امير ، ودعم الدولالاجنبية لفريق ضد فريق .

ويجب ان نقرر هنا ، ان هذه المحاولات ، لم تكن تحمل اي معنى من معاني الوطنية ، ولقد جرت على الوطنالعربيتدميرا للقوى،وارتباطات بالاجانب ما زلنا نعاني من نتائجهما.

وكانت محاولة التوحيد الثانية حركة ذات طابع ديني فكريا ، وذات طابع عربي قبلي عمليا ، قامت بها حركات مختلفة اهمها الوهابية في الجزيرة العربية ، والسنوسية في ليبيا . ولكن هذه الحركات جابهت ما جابهتهالحركاتالاولى، فاستسلمت بعد مقاومة عنيفة . ولقد لعب محمد علي دورا فعالا في تحطيم حدة «الاندفاعة الوهابية» ، وقامتالخلافة بدور مماثل . وقد حرم محمد علي الوهابية من فرصتها الذهبية ، في وقت كانت فيه قادرة على التوسع والانتشار . وحين بدات حركتها التوسعية في اوائل هذا القرن كان الاستعمار على اهبة الاستعداد باسلحته الحديثة، فحال دونها ودون ما تبغيه . صحيح ان الوهابية كانت حركة دينية ، ولكنها كانت حركة عربية عمليا ، وتسعى لتوحيد الوطن العربي، قلب العالم الاسلامي. وكانت هذه المحاولة ـ لولا تدخل محمد علي والخلافة والاستعمار فيما بعد ـ كفيلة بتحقيقتوحيد جزئي يشمل الجزيرة العربية كلها على الاقل ، ان لم يمتد الى العراق وسوريا .

ونستطيع ان نعتبر احتلال محمد علي للجزيرة العربية والشام من محاولات التوحيد ، التي شهدها الوطن العربي ، قبل نهاية القرن التاسع عشر . ولم تكن هذه المحاولة عربية من حيث الفكرة او القيادة ، ولكن مطامع محمد علي السياسية ، قادته الى محاولة اصطناع صبغة عربية لها ، ولعل تصريح ابنه ابراهيم الذي قال فيه : « لقد جئت مصر صبيا ، فلونت شمس مصر دمي

وصرت عربيـــا » * . ومحـــاولات الاتصال التـــي اجراها مـــع بعض الزعماء القبليين ، بعض مـــا يـــدل على طبيعة هـــذه المحاولة . غيـــر ان محاولة محمد علي جابهت ظروفا مماثلة للظروف التي جابهتها المحاولات الســابقة . لم تكن الخلافة هذه المرة عاملا معوقا ، فقد كانت من الضعف ما جعل ابواب الدرة مفتوحة امـــام جيش محمد علي الزاحف ، ولكن الاستعمار الاوروبي الطامـــع بتركـــة « الرجل المريض » ، ما كان ليرضى بقيام دولة قوية كبيرة ، في هذه المنطقة الهامة من العالم . ولقد تراجع محمد علي ازاء التهديد الاستعماري، واكتفى بمصر له ولورثته .

ومن المؤكد ان طريق هذه المحاولة لم يكن مفروشا بالورود والرياحين، فقد كانت تجابه ــ عدا الاستعمـــار الاوروبي والخلافة ــ امراء وقبائل، ما كانوا او كانت ، ليرضوا عن قيام حكم مركزي . ولكن جيش محمـــد علي ، الحديث والكبير والمنظـــم حينذاك ، كان كفيلا بمواجهة اوضاع كهذه . ونستطيع ان نقول بـــان الوطن العربي ، خسر من جراء فشل هذه المحاولة خسرانا كبيرا . فهذه المحاولة ، التي لم يكن وراءها غيـــر الطموح السياسي ، كانت كفيلة ــ لو تم لها النجاح ــ باجراء عمليـــة توحيد وتقدم لا نستطيع ان نجزم الان بمـــدى فعاليتهما ، ولكنهما ولا شك مفيدتان . ذلك ان اتجاه هذا الحكم نحو المركزية ، كان ضروريـــا لمواجهة التفكك الاجتماعي والقبلية السياسية . كما ان اتجاهه نحـــو العلوم والمخترعات ، كان سيتـــرك اثاره فـــي مستقبل الايام . صحيح ان هذه المحاولة ــ لا سيما في ميدان الصناعة ــ لم تثبت قدرتها علـــى البقاء في مصر ، ولكن الذي لا شك فيه ، انها عرفت مصر باوروبا ، واوجدت اســس الحركة الفكريـــة التي شهدتها مصر في الربع الاخير من القرن التاسع عشر واوائل القرن العشرين . وانه لمن المؤكد ان مصير هذه المحاولة كان سيختلف لـــو استطاعت ان تضم تحت جناحيهـــا الجزيرة العربية والشام ، كمـــا ان اثارها كانت ستمتد الى هذه الاجزاء من الوطن العربي ، وهو ما لا يشك احد في اهميته (٣) .

ــ ٢ ــ

لن نتحدث الان عن عوامل النهضة القومية الحديثة ، لوجود عدد مـــن الكتب التي تبحث الموضوع ، مـــن وجهة نظر او اخرى (٤) . ويمكن

---

* ــ جورج انطونيوس ــ يقظة العـــرب ــ ص ٩٠ ــ دار العلم للملايين .

٣ ــ القومية العربية ( تاريخها وقوامهـــا ومراميها ) ــ للامير مصطفى الشهابي . معهد الدراسات العربية العالية ط. سنة ١٩٦١

٤ ــ ا ــ تطور المفهوم القومي عند العرب ــ انيس صايغ ــ دار الطليعة ط. اولى ، ص ــ ٥٨ ــ ٦٢ ــ . ب ــ القومية العربيـــة ، فكرتها تطورها نشأتها ، الدكتور حازم نسيبة ، ترجمة عبد اللطيف شرارة ط. اولى ، دار بيروت ص ــ ٤٨ ــ ٧١ . ج ــ الشـــودي العربي المعاصر ــ ناجي علوش ط. اولى سنة ١٩٦٠ ، دار الطليعة . د ــ والكتاب المذكور في هامش (٣) .

ايجاز هذه العوامل فيما يلي :

اولا : حالة الفوضى والفساد التي بلغتها الدولة العثمانية، والحركات الاصلاحية التي قادها بعض المصلحين، ابتداء من منشور « الكلخانة » سنة ١٨٣٩ حتى دستور سنة ١٩٠٨ .

ثانيا : غزوات الاستعمار الغربي التي بدات بحملة نابليون على مصر سنة ١٧٩٨ . والتي ادت الى احتلال اجزاء من البلاد العربية . « في سابقة الصراع من اجل مناطق النفوذ، ومن أجل توسيع رقعة المستعمرات، وتامين طريق الهند ».

ثالثا : الحركة الثقافية التي نشأت بانشاء المدارس . وارسال البعوث الى اوروبة ، ودخول المطابع .

— ٣ —

مر الفكر العربي والنضال العربي بمراحل ثلاث ، في بحثه عن الحرية والاستقلال :

الاولى : مرحلة الدعوة للتساوي مع الاتراك .

الثانية : مرحلة الدعوة لنظام لامركزي او اتحادي .

الثالثة: مرحلة الدعوة للاستقلال.

وليس من السهل التمييز بين حدود المرحلتين الاوليين ، ذلك انهما تشابكتا وتداخلتا . اما المرحلة الثالثة فقد بدات مع المؤتمر العربي الاول ، وتحققت بالثورة العربية سنة ١٩١٦ .

وكانت المرحلة الثانية ممهدة للمرحلة الثالثة، لان الدعوة للامركزية كانت تقوم على اساس اعتبار الدولة العثمانية مؤلفة من مجموعة من الامم ، وان العرب فيها امة واحدة يجب ان تحتل مكانها .

وظهرت هذه « المراحل » في محاولات تعريف الامة ، وتحديد المضمون السياسي لها . فالامة عند اديب اسحق هي « الجماعة المتجنسة جنسا واحدا ، الخاضعة لقانون واحد » ؛ اما وحدة الجنس هذه فهي « اتفاق الجماعة على الاعتزاء الى جنس واحد يتوالدون فيه ، ويتسمون به كالجنس الاميركاني لسكان الولايات المتحدة الاميركية سواء كانوا انكليزا وفرنسويين او اسبانيين او اميركانيين اصلا ؛ والعثماني لسكان البلاد العثمانية في اوروبة واسيا كانوا تركا او عربا او تترا اصلا » . وينفي اديب ان تكون اللغة « من لوازم وحدة الامة » ويعتبر ذلك وهما (٥) . ولم يحل هذا التعريف غير القومي للامة دون اديب اسحق واطلاق مثل هذه الصيحة سنة ١٨٨٠ : « والا فما للحجاز محجوز الانوار ، وما للشام مشئوم الاحوال، ولمصر مقرونة الطالع بالعسر، وما للعراق مؤذن العز بالفراق ، وما لحلب متوالية النوب ، وما لليمن فاقد اليمن ، وما لتونس عديمة الانس ، وما للمغرب منهمل الغرب؟ الم يكن في كل هذه الاقطار نفر من اولي العزم تبعثهم الغيرة والحمية على جمع الكلمة العربية ، فيتلافون

٥ ــ الثوري العربي المعاصر ــ ص (١٧٤ ــ ١٧٦) .

احوالها قبل التلاف،متظاهرين كالبناء المرصوص ، او كصخور تلاحمت فصار ركامها جبلا حصينا ، لا تؤثر فيه العواصف ، ولا تضعفه الزلازل » (٦) .

وتقدم الكواكبي خطوة على هذه الطريق ، فدعا « للاتحاد الوطني » القائم على « الوفاق الجنسي » وضرب مثلا لذلك امم استراليا واميركا . وقد بحث الكواكبي موضوع الامة او الشعب في مبحث من كتابه « طبائع الاستبداد » بعنوان « مبحث ما هي الامة اي الشعب » . وقد بدا هذا المبحث بالسؤال التالي : « هل هي ركام مخلوقات نامية، او جمعية عبيد لمالك متغلب ، ام هي جمع بينهم روابط جنس ولغة ووطن وحقوق مشتركة ؟ » (٧) . ولقد اعتقد الكواكبي بان مواجهة مشاكل العالم الاسلامي تقتضي اعادة الخلافة الى عربي من قريش ، ونقل عاصمة الخلافة الى مكة . دون ان يتنكر لمبدا الجامعة الاسلامية (٨) . وكانت دعوته للتفريق بين السلطات « السياسية والدينية والتعليم » من اخطر ما طرح في تلك الفترة .

وصدر سنة ١٩٠٥ كتاب بالافرنسية لنجيب عازوري اسماه « يقظة الامة العربية في اسيا التركية » ، يحث العرب على استرداد حقوقهم، ويدعو الى « انفصال الولايات العربية عن الدولة العثمانية ، على ان يكون الحجاز مقرا لخلافة اسلامية عربية واحدة ، وان تتكون من العراق وسورية ولبنان وفلسطين دولة عربية واحدة عصرية » (٩) . واصدر عازوري ايضا سنة (١٩٠٧) مجلة بالافرنسية سماها «استقلال العرب» . ويذكر الامير مصطفى الشهابي ان نشاط عازوري لم يكن له اثر في الوطن العربي ويجزم « ان كتاب عازوري لم يكن عند احد من شباب جمعية النهضة العربية ، ولا عند احد ممن الفوا عقب اعلان الدستور العثماني الجمعيات والمؤسسات القومية العربية المختلفة » (١٠) . وسنة ١٩٠٧ بالذات اصدر رفيق العظم كتابه « الجامعة الاسلامية واوروبا » مؤكدا على الحقائق التالية:

اولا : اولوية « رابطة الجنس والوطن » تليها رابطة « العصبية الدينية » . « وقل ما جمع الدين كلمة اهله باجمعهم الا في الشاذ النادر ، اللهم الا في العواطف دون الفعل ، فقد يتألم مسلم الغرب لمسلم الشرق اذا اصيب بمصيبة كبرى فلا يتعدى المه هذا دائرة الشعور » (١١) .

٦ ـ الدرر ـ اديب اسحق .

٧ ـ طبائع الاستبداد ـ عبد الرحمن الكواكبي ، ص ـ ١٢٠ ـ

٨ ـ القومية العربية ـ حازم نسيبة ص ( ٦٢ ـ ٦٣ ـ و ١٤٤ ) .

٩ ـ محاضرات في نشوء الفكرة القومية ـ ساطع الحصري ص ـ ١٧٠ ـ

١٠ ـ القومية العربية للشهابي ص ـ ٥٩ ـ

١١ الخلافة الاسلامية واوروبا ـ رفيق العظم ، ص ـ ٤ ـ

ثانيا : ان اختـــلاف الاديان او الاعتقادات لا يكون « مانعا من توثيق عرى القومية ، او مباينا اغراضها السياسية » (١٢) .

ثالثا : اما «الجامعة الاسلامية» فما هي الا « الاعتصام بجامعة كبرى تقابل اجتماع الدول المسيحية على اهتضام حقوق الامم الاسلامية »(١٣).

وهكذا يؤكد رفيق العظم على الدعوة القومية ، محولا الجامعـــة الاسلامية الى حلف . وهنا يتجاوز الذين سبقوه ، واضعا اسلم تحديد انذاك لموقف العرب القومي والسياسي في معركة تحقيق الذات والحرية .

وهكذا نجد ان الانقلاب الدستوري حدث سنة ١٩٠٨ ، وما زالت الحركة العربية في اول نشاطها .

— ٤ —

انشئت في بيروت سنة ١٨٤٧ جمعية ثقافية ، سميت « الجمعيـة العلمية السورية » وكانت اشبـــه ما تكون بناد مختلط يشترك فيـه عرب واجانب ، وكان العرب جميعا من المسيحيين ، وابرزهم ناصيـف اليازجي وبطرس البستاني . وكانت الهيئة الادارية لهذه الجمعية تنتخب سنويا بالاقتراع السري . وقـــد عاشت خمس سنوات (٤٧ ــ ٥٢) عقدت خلالها ثلاثا وخمسين جلسة ، القيت خلالها محاضرات وخطب ، وجرت مناقشات . ومن المحاضرات التي القيت محاضرة لبطرس البستاني « تعليم النساء » ، واخرى لناصيف اليازجي بعنوان « علوم العرب » .

واعاد الامير محمد الامين ارسلان تأسيسها سنة ١٨٦٨ ، واستطاع ان يحصل لها على اجازة من راشد بك والي سورية ، « كشركة مركبة مـن اعضاء مختلفة محلية وغير محليـة بما يقتضى لانتشار المعارف من علوم وفنون » . وعلى الرغم من ان الامير محمد الامين ارسلان قد حدد هدف الجمعية بقوله : « يراد منها نشـــر العلوم والفنون والاشتغال فيما ينفـع العموم دون التعرض لشيء من الامور الدينية او الدولية » فقد اشـار الخطباء في حفلة الافتتاح الى «فضل العرب على العلوم» ، وانهم هم الذين ادبـوا العلوم وهذبوا الفنـــون » . وقالوا : «ان من واجب العرب ان يستعيدوا مجدهم بعد ان اصابهم ما اصابهم بسبب الكسل والملل ، وعليهم ان يعولوا على انفسهم . وخير طريق لتحقيق هذه الغاية هـــو تشييد المدارس والمكاتب وعقـــد الاجتماعات العلمية » . « والجمعيات العلمية معامل العلوم ومصانـــع الفنون ، ومعرض الاداب » . ومـن المحاضرات التي القيت فيها ، محاضرة لاسبر شقير بعنوان « الجمعيـــات وفوائدها » واخرى لابراهيم ثابت بعنوان «الحاجة الى التمدن والتقدم» وثالثة لعبد الله صوصه بعنوان « في التربية العمومية » . وهنـــاك محاضرات اخرى في التجارة والصناعة والزراعة وجغرافية سورية وتاريخها

١٢ ــ المصدر السابق ، ص ــ ٥٠ ــ
١٣ ــ المصدر السابق ، ص ــ ٨ و ٩ ــ

وقد مثلت فيها ثلاث مسرحيات(١٤).

وقد ضمت هذه الجمعية اكثر من مائة وخمسين عضوا ، دون اعتبار لطوائفهم . وكان بينهم اثنان من مصر هما سليمان واحمد اباظة .

وتعود اهمية هذه المنظمة الى سببين : الاول ، كونها المنظمة الاولى، التي نشأت في عهد النهضة ، يحدوها حافز التقدم ، وان لم تكن لها اهداف سياسية واضحة . والثاني : التقاء نفر من الشباب ، من خلالها ، داعين لاستعادة مجد العرب، والتحرر من الاتراك . وكان من هؤلاء ابراهيم اليازجي صاحب القصيدتين المشهورتين : « تنبهوا واستفيقوا ايها العرب » و « دع مجلس الغيد الاوانس » (١٥) .

ونشأت حوالي سنة ( ١٨٨٠) جمعية سرية ، الصقت مجموعة من النشرات على الجدران ، « جاء في احداها ذكر لمساوىء الحكم التركي ، ومحاولته القضاء على اللغة العربية ، واغتصاب الترك الخلافة من العرب» (١٦) . وقد حددت هذه الجمعية اهدافها بما يلي :

١ ــ منح الاستقلال لسورية متحدة مع لبنان .

٢ ــ الاعتراف باللغة العربية لغة رسمية في البلاد .

٣ ــ الغاء الرقابة وغير ذلك من القيود المفروضة على حرية الراي ونشر المعرفة .

٤ ــ استخدام وحدات الجند المحلية في الخدمة العسكرية المحلية دون سواها .

ولم تعمر هذه الجمعية طويلا، وقد انحلت سنة ١٨٨٣ ، على ما يراه الدكتور عبد الكريم الغرايبة في كتابه « سورية في القرن التاسع عشر»(١٧)

ويجب ان نلاحظ ان هذه الجمعية التي تحدثت نشراتها عن « اغتصاب الترك للخلافة من العرب» « وعن محاولتهم القضاء على اللغة العربية » ترفع شعار « استقلال سورية متحدة مع لبنان » .

وقد انشيء في بيروت عدد من الجمعيات خلال هذه المرحلة نذكر منها الجمعية الادبية في طرابلس ( ١٨٥٠ ــ ١٨٧٦ ) والجمعية العلمية في المدرسة الكلية (١٨٦٦)، وجمعية زهرة الآداب في بيروت ( ١٨٧٣ ) والجمعية التاريخية السورية في دمشق ( ١٨٧٥ ) وجمعية المقاصد الخيرية الاسلامية في بيروت ( ١٨٧٨ ) . ولكن اهم ما نشأ خلال هذه الفترة هو حلقة الشيخ طاهر الجزائري في دمشق . ولقد كانت حلقة ثقافية ، تضم عربا واتراكا ،

١٤ ــ سورية في القرن التاسع عشر (١٨٤٠ ــ١٨٧٦) ــ الدكتور عبد الكريم الغرايبه ، معهد الدراسات العربية العالية ١٩٦١ ــ ١٩٦٢ ــ ص ــ ٢١٥ ــ ٢٢١ ــ

١٥ ــ القومية العربية ــ مصطفى الشهابي ص ــ ٤٥ ــ ٤٧ ــ

١٦ ــ المصدر السابق ص ــ ٤٨ ــ وتاريخ سورية في القرن التاسع عشر ص ــ ٢٢٣ ــ

١٧ ــ يعتقد بانها انشات سنة ١٨٨٢ . وهذا غير صحيح لان مناشيرها ارسلت الى لندن قبل هذا التاريخ .

وكان لافرادها صلة برجال « تركيـة لفتاة » . وانبثقت من هذه الحلقة ، حلقة اخرى عرفت بحلقـة دمشق لصغيرة سنة ( ١٩٠٣ ) . وكانـت هذه الحلقة تعمل في العلـن لدراسة العربية وآدابهـا ودراسة التاريخ العربـي ، وانشاء دور المطالعـة والمدارس ، وفي السر لبعث الامـة العربية . ولما كانوا يدركون ان هـذا العمل يحتاج الى زمن طويل ، رفعوا شعارات سياسية محـددة اقتصرت على مطالبة الدولة العثمانية بتحقيق اللامركزية وضمان حقـوق الامـة العربية . وانشأ اثنان من رجالها في اسطنبول مع عبـد الكريم الخليل سنة ( ١٩٠٦ ) « جمعيـة النهضة العربية » ، ولكن مقرها ظـل فـي دمشق . وكان لهـذه الجمعية اثرها في العمل القومي فيما بعد ، عن طريق رجالها الذين ساهموا فـي مختلف النشاطات القومية .

وحدثت سنة ١٩٠٨ حركة جماعة الاتحاد والترقي ، ففرح بهـا العرب كثيرا ، على امل ان تحقق لهم آمالهم في التقدم والاصلاح . ومنـذ سنـة ١٩٠٨ بـدات تنشأ مجموعة مـن الجمعيات السياسية ، نذكر منهـا « جمعية الاخاء العربي » ، و« الجمعية القحطانية » و« المنتـدى الأدبـي » و « العربية الفتاة » و « حزب العهد » و حزب « اللامركزية العثمانـي » . وكانت اهداف هذه الجمعيات تنحصر في المطالبـة بالاصلاح واللامركزية . لم تكن هنالك منظمـة واحدة تدعـو للانفصال عن الدولة العثمانية (١٨).

وكان مـن نتيجـة النشاطات القومية خـلال السنوات التاليـة ان عقد « المؤتمر العربي الاول » فـي باريس مـا بين ١٨ و ٢٣ حزيران سنـة ١٩١٣ . والحقيقة ان هـذا المؤتمر حدث قومي كبير . فلقد أعلن فيه ولاول مرة ان العرب امة تامة . قال عبد الغني العريسي « هل للعرب حـق جماعة » ؟ واجـاب : « ان الجماعات في نظـر علماء السياسة لا تستحق هـذا الحق الا اذا جمعت على راي علماء الالمان وحدة اللغـة ووحدة العنصر ، وعلـى راي علماء الطليان وحـدة التاريخ ووحـدة العادات ، وعلـى مذهب سياسـة الفرنسيس وحدة المطمع السياسي . فاذا نظرنا الى العرب من هذه الوجوه الثلاثة علمنا ان العرب تجمعهم وحدة لغة ، ووحدة عنصر ، ووحدة تاريخ ، ووحدة عادات ، ووحـدة مطمـع سياسي . فحق العرب بعد هـذا البيان ان يكون لهـم علـى راي علماء السياسة دون استثناء حق جماعة ، حـق شعب ، حـق امة » . واردف بعد ذلك قائلا : تتساءلون عـن ماهية هـذا الحق لجماعة الامة العربية ، فبيانا لهذا الحق اقول : « اول حـق لجماعة الشعوب حق الجنسية » .

ولقد طالب المؤتمر بالاصلاح علـى قاعدة اللامركزية ، ولكن المطالبة هذه المرة لم تكن دون شرط . ولاول مـرة

---

١٨ ـ القومية العربية ـ مصطفى الشهابي ص ـ ٦٨ ـ ٨٣ ـ

يكون الشرط هاما ، انه الانفصال . قال العريشي : « وانه لا تتطرق الينا فكرة الانفصال عن هذه السلطنة ما دامت حقوقنا فيها مرعية محفوظة . فارتباطنا بهذه الدولة يتراوح اذا بين ضمان هذه الحقوق فان كثر فكثر وان قل فقل » (١٩) .

ولاول مرة يعلن بمثل هذا الاجماع « ان الرابطة الدينية قد عجزت دائما عن ايجاد الوحدة السياسية » (٢٠).

وعند دراسة محضر جلسات المؤتمر وقراراته نخرج بالملاحظات التالية :

اولا : اكثر المؤتمرون من ترديد كلمة سورية والسوريين ، على الرغم من انهم جميعا اعتبروا انفسهم « ابناء السلالة العربية المجيدة » واعتبروا ان مؤتمرهم جاء « مذكرا للامة العربية في جميع الاقطار بأن لها وجودا قوميا ، وان لها حقوقا سياسية وادبية واقتصادية ، وانها مهضومة هذه الحقوق عند دولتها » (٢١) .

ثانيا : اعتبر المؤتمر مصر خارج نطاق عمله ، على الرغم من انه اعتبر نفسه حركة عربية ، واعتبر مصر عربية عثمانية . ويبدو ان كون مقر حزب اللامركزية في القاهرة كان له اثر على موقف رئاسة المؤتمر .

ثالثا : لم يحضر المؤتمر ممثلون عن المغرب العربي والجزيرة العربية . وكانت البرقيات التي وصلت المؤتمرين من مصر ، من سوريين مقيمين فيها.

رابعا : كانت اكثر البرقيات الواردة للمؤتمر من مدن الشام ( سورية ولبنان وفلسطين ) ومن المهاجر . ولم تصل الا برقيتان من العراق ، الاولى من بغداد والثانية من البصرة . كما وصلت برقية واحدة من الجزائر من الامير خالد حفيد الامير عبد القادر .

خامسا : لم يتحول المؤتمر الى منظمة سياسية ، ولم تكن الحدود التي فرضها المؤتمرون على انفسهم بشأن التعامل مع الاتراك كافية لجعل المؤتمر فعالا .

سادسا : كان المؤتمر يضم اتجاهات مختلفة ، وهذا ما يبدو في المحاضرات التي القيت فيه .

ولقد جرت مفاوضات بين جماعة الاتحاد والترقي وممثلي المؤتمر ادت الى عقد اتفاق ، ولكن الحرب لم تلبث ان قامت فاعتقل الاتراك الزعماء الذين استطاعوا اعتقالهم ، وبعد محاكمات صورية لعدم اكثرهم ، وكان من بين هؤلاء عدد من اعضاء المؤتمر .

— ٥ —

حين بدات الحرب العالمية الاولى ، انتقم جماعة الاتحاد والترقي من دعاة الاصلاح العرب ، وارتفعت اعواد

١٩ ـ المؤتمر العربي الاول ـ صدر عن اللجنة العليا لحزب اللامركزية بمصر سنة ١٩١٣ ص ( ٤٢ ـ ٥٠ ) .

٢٠ ـ المصدر السابق ـ ص ٢٠ ـ

٢١ ـ المصدر السابق ص ـ ب ـ من المقدمة .

٢٢ ـ المصدر السابق ـ ص ـ ١٩٦ ـ

المشانق في بيروت ودمشق ، ليعلق عدد من قادة الحركة العربية . وكانت هذه الحادثة ، مع ما سبقها منذ سنة ١٩٠٨ من استفزازات قومية ، اكبر حافز لقادة الحركة العربية على التفكير بالانقلاب على الاتراك .

وكان شريف مكة رجلا طموحا ، يحلم بملك طويل عريض . وقد جرى بين بعض رجال الحركة العربية وبينه اتصال عن طريق ابنه فيصل . وكان الانجليز قد اتصلوا به منذ سنة ١٩١٢ كما اتصلوا بحزب اللامركزية في مصر . وفي مارس سنة ١٩١٥ ابرق الشريف حسين الى اسطنبول بما يلي : « ان خروج الدولة العثمانية منصورة من الحرب الحاضرة ، يتوقف على اشتراك العناصر العثمانية فيها ، ولا سيما العرب ، والجانب الاهم من ميادين القتال في بلادهم ، وتأييدهم لها قلبا وقالبا في نضالهم .

ويلوح لنا ، ان ارضاء الشعب العربي يتوقف على مداواة قلبه ، الذي جرحه اتهام عدد كبير من ابنائه ، بتهم سياسية مختلفة ، والقبض عليهم امام المحاكم العسكرية ، بالدواء التالي :

١ ـ اعلان العفو العام عن المتهمين السياسيين .

٢ ـ انالة سورية ما تطلبه من نظام لامركزي .

٣ ـ جعل امارة مكة وراثية في اولادي ، وابقائها على حالتها الحاضرة .

فاذا قبلت هذه المطالب ، فأتعهد بحشد القبائل العربية بقيادة ابنائي في ميدان العراق وميدان فلسطين؛ واذا لم تقبل فارجوكم الا تنتظروا مني شيئا سوى الابتهال للحق ، جل وعلا ، بان يهب الدولة النصر والتوفيق (٢٣) .

وجاءه الردقاسيا، فصمت الحسين، ولكنه ارسل ابنه فيصل الى دمشق والاستانة لدراسة الاحوال والاتصال برجال الحركة العربية . وفي دمشق اجتمع فيصل بعدد من رجال الحركة العربية حددتهم له « العربية الفتاة »، ومن هؤلاء ياسين الهاشمي ممثلا عن حزب العهد ، ورئيس اركان حرب الفيلق التركي الثالث عشر المرابط في الشام ، وعلي رضا باشا الركابي رئيس بلدية دمشق وممثل العربية الفتاة ، والشيخ بدر الدين الحسني كبير محدثي الشام ، وممثل علمائها، ونسيب بك الاطرش من كبار شيوخ الدروز ، ونواف الشعلان رئيس عشائر الرولة . وقد وعده هؤلاء بالتأييد الشامل . وعند عودة فيصل اجتمع الحسين وابناؤه وقرروا اعلان الثورة على الاتراك بالاتفاق مع الانجليز . وعاد فيصل الى الشام ليكون رهيئة عند جمال وليجري اتصالات مع رجال الحركة العربية ، وبدا ابوه الاتصال مع الانجليز . وقد عرض عليهم مشروع اتفاق جاء

---

٢٣ ـ اسرار الثورة العربية الكبرى ، وماساة الشريف حسين ـ امين سعيد ـ دار الكاتب العربي ص ـ ٥٢ ـ

فيه : « لما كان العرب باجمعهم دون استثناء ، قرروا في الاعوام الاخيرة ان يعيشوا ، وان يفوزوا بحريتهم المطلقة ، وان يتسلموا مقاليد الحكم نظريا وعمليا بايديهم ، ولما كان هؤلاء قد شعروا وتاكدوا ، ان مصلحة حكومة بريطانيا ان تساعدهم وتعاونهم ، للوصول الى امانيهم المشروعة ، وهي الاماني المؤسسة على بناء شرفهم وكرامتهم وحياتهم .

ولما كان من مصلحة العرب ان يفضلوا مساعدة حكومة بريطانيا من اية حكومة اخرى ، بالنظر لمركزهم الجغرافي ، ومصالحهم الاقتصادية وموقفهم من حكومة بريطانيا .

وبالنظر لهذه الاسباب كلها ، يرى الشعب العربي ، انه من المناسب ان يسال الحكومة البريطانية ، اذا كانت ترى من الموافق ان تصادق بواسطة مندوبها او ممثليها على الاقتراحات الاساسية التالية » .

وحددت المذكرة الاقتراحات ، التي يمكن ايجازها بما يلي :

١ ـ اعتراف بريطانيا باستقلال البلاد العربية « من اضنة حتى الخليج الفارسي شمالا ، ومن بلاد فارس حتى خليج البصرة شرقا ، ومن المحيط الهندي للجزيرة جنوبا ، يستثنى من ذلك عدن التي تبقى كما هي ، ومن البحر الاحمر والبحر المتوسط حتى سيناء غربا » .

٢ ـ « تعترف حكومة الشريف العربية ، بافضلية انكلترا في كل مشروع اقتصادي في البلاد العربية ، اذا كانت شروط تلك المشاريع متساوية » .

٣ ـ « يجب على انكلترا ان تعترف بالغاء الامتيازات الاجنبية في البلدان العربية ، وان تساعد حكومة الشريف في مؤتمر دولي لتاكيد هذا الالغاء » .

وقد اجاب مكماهون على هذه المذكرة ، فاكثر من التبجيل ثم اكد للحسين « اعتراف انكلترا باستقلال البلاد العربية وسكانها » وموافقتها « على ان يكون الخليفة عربيا » ، « عريق العروبة » ، وحاول ان يتهرب من بحث موضوع الحدود بحجة انه سابق لاوانه . ودارت بين الشريف ومكماهون مماحلات ، كشفت بريطانيا فيها تحفظاتها بشان « مرسين واسكندرون وبعض الاقسام السورية ، الواقعة غرب دمشق وحمص وحماه وحلب » التي « لا يمكن ان يقال انها عربية محضة » ، و « ولايتي البصرة وبغداد » . وقد اعلن الشريف حسين « الثورة » في ١ حزيران ، وتحفظات بريطانية واضحة امام عينيه . وليبرر ما قام به اصدر منشورا يمكن تحديد المواضيع الاساسية فيه بما يلي :

اولا : انحراف الاتحاديين عن صراط الدين ، وطعنهم في الاسلام وتجرؤهم على السيرة النبوية والخلفاء الراشدين .

ثانيا : اشتراكهم في حرب اوروبية ووقوفهم بالدولة موقف الهلكة .

ثالثا : اصدار اوامرهم للجنود في مكة بجعل الصلاة والصوم اختياريين.

رابعا : اغتصاب صلاحيات السلطان الشرعية .

خامسا : اضطهاد العرب ومحاربة اللغة العربية .

ويذكر المنشور الحديث المعروف : « اذا ذلت العرب ذل الاسلام » ، بينما يعتبر الثورة واجبا دينيا من الواجب على المسلمين في مشارق الارض ومغاربها ان يقدموا اليها ما يساعد على احكام روابط الاسلام (٢٤) .

لقد اشتركت عوامل ثلاثة في احداث الثورة ، اولها : طموح رجال الحركة العربية ، وثانيها طموح الشريف حسين ، وثالثها : مساعي الانجليز . وقد التحق عدد من رجال الحركة العربية بالشريف حسين ، واشتركوا في اعداد جيش حديثه ، وفي بناء الدولة ، وكان من هؤلاء القائد عزيز علي المصري ، ولكنهم كانوا العنصر الاضعف في الدولة الجديدة ، التي اعتمدت على الشريف وابنائه والعشائر المؤيدة لهم اساسا.

والواقع ان « الثورة العربية » ، لم تستطع ان تكون شاملة للاسباب التالية :

اولا : كانت عقلية الحسين تقليدية ودينية ، لا تستطيع ان تستوعب فكرة العروبة بالمعنى الذي كان يتحدث عنه رجال الحركة العربية .

ثانيا : لم تحصل الحركة الا على بعض التأييد في سورية والعراق وفلسطين ولبنان ، بينما قاومها كثير من رجال الدين والمثقفين وبعض القبائل بتهمة خروجها على الدولة الشرعية ، والعمل لمصلحة دولة اجنبية .

ثالثا : حصرت الحركة مطاليبها باستقلال الجزء الآسيوي من الوطن العربي دون الجزء الافريقي .

ولقد فشلت « الثورة » بعد ذلك ، وفشل الشريف حسين ، ونجح الاستعمار .

وقصة فشل هذه « الثورة » هي قصة فشل « الحركة العربية » . لقد كانت امتحانا لها ، وكان هذا الامتحان حاسما . فالحركة العربية التي قضى المثقفون سنوات في انشائها ، لم تكن بعد قادرة على تحريك الراي العام العربي وقيادته . وبينما استطاع مصطفى كمال ان يقود تركيا ضد الغزو الاستعماري بنجاح ، اثبت قادة الحركة القومية عجزهم ، واكتفوا من المطالب القومية بالتحلق حول الملك فيصل ، صديق الانجليز العاجز الفاشل .

## — ٦ —

ان الحزب الوحيد من بين الحركات التي عرفها الوطن العربي بعد ١٩٠٨ ، الذي عاش حتى ما بعد الحرب العالمية الاولى كان حزب « العربية الفتاة » . ولقد اصبح

---

٢٤ ـ اسرار الثورة العربية الكبرى ومأساة الشريف حسين ، امين سعيد ص ـ ٩٩ ـ دار الكاتب العربي .

« حزب الاستقلال » خلال الحكم الفيصلي في سورية ، ولكنه تبعثر بعد ذلك .

وكان المؤتمر السوري اهم احداث هذه الفترة ، فلقد اجتمع بعض رجال الحركة في النادي العربي بدمشق في السادس والسابع من آذار سنة ١٩٢٠ ، واتخذوا مجموعة من القرارات ، نوجزها فيما يلي :

١ ــ « استقلال سورية الطبيعية استقلالا تاما » .

٢ ــ « تكون الحكومة مدنية نيابية لامركزية تضمن حقوق الاقليات » .

٣ ــ « تراعي امانة اللبنانيين الوطنية في ادارة شؤون لبنان ضمن حدوده المعروفة قبل الحرب العالمية الاولى ، على ان يكون بمعزل عن كل نفوذ اجنبي » .

٤ ــ « المطالبة باستقلال العراق على ان يكون بين القطرين الشقيقين اتحاد سياسي واقتصادي » .

٥ ــ « ينادى بالامير فيصل بن الحسين ملكا على سورية » .

٦ ــ «شجب محاولات الصهيونيين لاقامة وطن قومي في فلسطين » .

ولقد كان هذا المؤتمر ــ على اهميته ــ تراجعا كبيرا . فالحركة العربية التي جلجلت باسم الوحدة العربية في المؤتمر العربي الاول ، والتي ساهمت في « الثورة العربية» املا في قيام دولة عربية متحررة تشمل المشرق العربي كله ، رضيت من الغنيمة بدولة في سورية ولبنان وفلسطين ، متحدة مع العراق اتحادا عند استقلاله . ولقد بويع فيصل في الشام ، والحسين ملك العرب في الحجاز ، وقائد « الثورة العربية » يتسنم عرش ملكه .

ولقد كانت الرياح تجري بما لا تشتهي سفن الحركة العربية ، اذ ان بريطانيا احتلت فلسطين والعراق ، واحتلت فرنسا لبنان ، ثم تقدمت الى سوريا ، وسقط فيصل ، ثم سقط الشريف حسين . وتبعثر رجال الحركة العربية هذه المرة ، وانتهت جمعياتهم واحزابهم ، ليصبح اكثرهم بطانة لملك العراق فيصل بن الحسين ، الحاكم باسم بريطانيا سعيدا .

## ــ ٧ ــ

ما الذي حققته الحركة العربية خلال هذه الفترة ؟

انه مفهوم القومية العربية ، الذي يستهدف وحدة العرب وحريتهم . وهو مفهوم كان واضحا من الناحية النظرية ، ولكنه لم يكن عميقا وشاملا من الناحية العملية ، فهو لم يتجسد في مؤسسة قومية واحدة ، ولم يلق تجاوبا عاما في الاقطار العربية كلها . ما اسباب ذلك ؟ هذا ما سنحاول الاجابة عليه . واني اعتقد ان هنالك عددا من الاسباب التاريخية العميقة الجذور ، وهذه الاسباب هي :

اولا : ان القبلية الجاهلية لم تتلاش مع الاسلام . ولقد عاشت بعده ، وجاءت عصور الانحطاط لتزيدها قوة . ولقد ظلت القبائل

الرحالة منها وغير الرحالة تحكم الوطن العربي من خلال استقلالها في مناطق اقامتها ، ولم تستطع الدولة العثمانية ان تغير من هذا الواقع . ولذلك ، فقد ظل الصراع بين القبائل يسود انحاء الوطن العربي ، وتحدثنا كتب التاريخ عن هذه الصراعات ، التي لم تتضاءل الا مع سيطرة الاستعمار الانجليزي والفرنسي على أجزاء وطننا . وكان الصراع بين عرب الشمال وعرب الجنوب ، او القيس واليمن ، اوسع هذه الصراعات . وعلى الرغم من ان جذور هذا الصراع تمتد الى العهد الاموي ، فان أجدادنا وآباءنا عاشوا آخر فصوله . كانت القبائل دائما ضد السلطة ، وكانت دائما تبحث عن التوسع والنفوذ ، وتعيش حياة كفاف ، فهي لذلك ضد الدولة ، وضد الوحدة القومية .

وان هذه الروح القبلية ، كانت سائدة حتى في اوساط الفلاحين ، وسكان المدن الى حد .

ولم يكن قد مس هذه الروح رياح التطور في الفترة التي ارخنا لها .

ثانيا : ان الاسلام ، وان كان عربي اللغة ، فهو داعية تفاهم ومساواة بين الداخلين فيه ، عربا وعجما . الناس في الاسلام اثنان مسلم وغير مسلم ، والاسلام لهذا يرفض « القومية » . ولقد كان العرب يدلون بعروبتهم ، ولكنهم كانوا يعتبرون المسلمين من غير العرب اخوة لهم . ولقد احجبت الحروب الصليبية ثم غزوات الاستعمار الحديث هذه الروح .

ولقد اختلط تاريخ العرب وامتزجت ثقافتهم بالاسلام ، حتى اننا نستطيع ان نقول ليس للعرب قبل الاسلام غير بعض الاخبار والقصائد والآثار . ولم يعرف العرب خلال تاريخهم معنى لكلمة الامة الحديث او لكلمة الوطن . وكانت قوانينهم التي يتعاملون بها اسلامية .

ثالثا : لم تتحقق وحدة الوطن العربي بعد سنة ( ٨٠٠ ) ، فلقد عمت « الثورات » وحركات العصيان على قيام انظمة حكم مختلفة بعد خلافة هارون الرشيد . وكان من نتيجة ذلك ان نشأت اوضاع محلية مختلفة الى حد . وعندما احتل العثمانيون البلاد العربية ، جعلوا منها ولايات ، يحكم كلا منها وال ، مستقل عن زميله وجاره ، ومختلف عنه في كل شيء الا في اضطهاد الجماهير .

وكانت الدولة العثمانية ، تعترف ببعض الامراء عندما يحققون سلطة ونفوذا ، وتخلع عليهم القاب الولاية وما شابه ، لا لشيء الا لانهم يقدمون الهدايا والاموال للسلطان .

اوضاع مثل هذه كانت من مكونات الكيانات السياسية الحديثة في الوطن العربي .

رابعا : ان سعة رقعة الوطن العربي ، وامتداد الصحاري بين اجزائه ، وعدم وجود مواصلات منظمة ، اوجد بقعا سكانية متقاربة ، فهناك سورية وفلسطين ولبنان ، وهناك العراق ، وهناك الجزيرة العربية ،

وهناك مصر ، وهناك المغرب . وما زالت مشكلة المواصلات غير محلولة.

خامسا : ومع نهاية الثلث الاول من القرن الماضي ، كانت الغزوات الاستعمارية ، تبتلع الجزء بعد الجزء من الوطن العربي ، فما كانت سنة ١٩١٨ ، حتى كان الاستعمار شاملا تقريبا . وكان وجنود الاستعمار واختلاف المستعمرين يؤدي الى وجود اوضاع مختلفة . ذلك ان وجود الاستعمار الفرنسي في الجزائر ، والانجليزي في مصر ، ساعد على خلق روح اسلامية ، بينما ساهم وجود الاستعمار التركي في اجزاء اخرى من الوطن العربي على تنمية الروح العربية . ولقد حافظ الاستعمار على المؤسسات الاجتماعية المعادية للتطور كالقبلية والاقطاعية ، وشجع النعرات الطائفية والاقليمية.

سادسا : كان لاختلاف المذاهب الدينية اثر في توزع الولاءات في الوطن . ولا بد من ان نذكر في هذا المجال الصراع السني ـ الشيعي الذي بدا منذ ثلاثة عشر قرنا تقريبا. ولقد اتجه ولاء السنة السياسي الى الاستانة خلال الحكم العثماني ، بينما اتجه ولاء الشيعة الى طهران . ولقد اضطهد الشيعة كثيرا ، وخلال عهود طويلة . اما النصارى فقد اتجه ولاء بعضهم الى الغرب .

لم يكن مستغربا والحالة هذه ، ان تكون الحركة العربية ضعيفة ، ومحصورة عمليا في بعض المثقفين من ابناء العائلات الكبيرة ، الذين درسوا في الاستانة وباريس . ولم يكن غريبا ايضا ان تلجأ الحركة الى الشريف حسين في جو مثل هذا الجو . ولم يكن غريبا ان تحصر معركتها الكبرى الاولى ، بفشل « الثورة العربية » ، ما دام الوطن العربي نفسه لم يكن مهيئا لثورة قومية .

ولكن هل كانت الحركة العربية خلال هذه الفترة من اليسار ؟

لقد كانت ولا شك على اختلاف تياراتها . فهي تمثل في كل مرحلة من مراحلها ، محاولات للتخلص من الاستعمار ، سيان بمطالبتها بالمساواة مع الاتراك ، او بعملها من اجل اللامركزية ، او بخروجها عليهم .

ولقد كانت هذه الحركة ايضا تطرح شعارات ديمقراطية ، مشبعة بروح الثورة الفرنسية . ولا بدع ، فهي ثورة برجوازية روحا ، وبرجوازية من حيث الاداة ، لانها تكونت من مثقفين وعسكريين ينتمون للعائلات العربية الكبرى ، ويؤمنون بضرورة حضارة الغرب الصناعية ، وان كانوا غير قادرين على الافلات من هيمنة تراثهم وتاريخهم .

ويسارنا القومي هذا ، لم يكن يسارا اوربيا ، مثل اليسار الفرنسي ، بل كان يسارا اصلاحيا قنوعا خنوعا ، يتحول بسهولة الى بطانات للملوك ، ويتعامل بسذاجة مع قوى الاستعمار ، ومع ذلك فقد فقد بعض قادته ارواحهم من اجل قضيتهم .

ونلاحظ بتتبعنا لتطورات الحركة العربية ما يلي :

اولا : انها نمت في ظل مجموعة متلاحمة من الظروف السلبية ، المفرقة للجماهير ، المبلبلة للافكار . وكان لهذا كله اثر حاسم في تكوينها ، ما زلنا نعيش عواقبه .

ثانيا : انها ـ نتيجة اوضاع اجتماعية معينة ـ وتحت تاثير الاسلام ، اتجهت اتجاها مثاليا وعظيا .

ثالثا : انها دعت لقيام حكم ديمقراطي مدني ، ولكنها القته نفسها في حضن الشريف حسين ، في مرحلة من المراحل ، وفي حضن ابنه فيصل في مرحلة اخرى ، مع انهما يمثلان العقلية العشائرية المحافظة .

رابعا : انها دعت لوحدة عربية شاملة نظريا ، ولكنها ساومت على وحدة جزئية تشمل المشرق العربي اولا ، ثم قبلت بوحدة سوريا وفلسطين ولبنان ، وعندما سقط الحكم الفيصلي في الشام ، قبل اكثر رجالها ان يتحولوا بطانة لفيصل ملك العراق ، الذي كان « يعدد اياما ويقبض راتبا » .

خامسا : وانها تبعثرت بعد الاحتلال البريطاني الفرنسي ، ولم تستطع ان تمارس عملا شعبيا وحدويا ، في اشد اوقات الحاجة اليه .

ان لهذه المرحلة اهمية خاصة في تاريخنا لانها المرحلة التي تكونت فيها برامج وعينا القومي والسياسي .

( في العدد القادم
الحركة العربية بعد الحرب العالمية الاولى ١٩٢٠ ـ ١٩٦٥ )


صدر حديثا :

التخلف الاقتصادي والاجتماعي
في اليمن

ابعاد الثورة اليمنية

للدكتور محمد سعيد العطار

اصدار
المطبوعات الوطنية الجزائرية
اشراف وتوزيع : دار الطليعة

# أزمة اليسار في الوطن العربي

ناجي علوش

منذ العشرينات من هـذا القرن واليسار العربي يعاني ازمة . ولقد بات من الضروري الان ، بعد كل التطورات السياسية التي حدثت على ارضنا ، وفي العالم ، وبعد ان عجز اليسار في الوطن العربي ان يثبت جدارته بقيادة الجماهير وتحقيق اهدافها ، ان نبحث عن الظروف التي اوجدت الازمة ، والعوامل التي صنعتها ، لكي نخرج من هذا كله بموقف من اليسار « الراهن » .

## نشأة اليسار

نشأ اليسار العربي في ظل الظروف التالية :

● انهيار الخلافة العثمانية ، وتمزق الوحدة الاسلامية ، في وقت كان المسلمون فيه ، يرون ان الخلافة « سياج الامة » ، وان الوحدة الاسلامية وسيلتها الوحيدة للدفاع عن النفس ، والانتصار في معركة البقاء .

● نشوء التيار القومي العربي .

● نشوء التيارات الاقليمية ، بعث الفرعونية في مصر ، وظهور مسالة لبنان الخاصة ، ثم ظهور مشكلة الكيانات الخاصة بعد الاحتلال الانجليزي ـ الفرنسي ( ١٩١٨ ) .

هذا على المستوى المحلي ، اما على المستوى العالمي ، فقد كان العالم يمور باحداث غير عادية :

● قامت الحرب العالمية الاولى ، نتيجة تنافس الدول الكبرى على المستعمرات ، وكان من نتيجتها اعلان مبادىء الرئيس الامريكي ولسن في حق تقرير المصير ، واقتسام العالم بين الدول الحليفة المنتصرة .

● انتصار ثورة اكتوبر الاشتراكية على القيصرية ، ثم انتصارها في الحرب الاهلية ، وقيام اول دولة اشتراكية .

● بدء المسيرة الشيوعية في الصين قبل نهاية العقد الثالث من القرن العشرين .

● انتصار الفاشية في ايطاليا ، والنازية في المانيا .

في ظل هذه الظروف نشات الاتجاهات التالية :

اولا : الاتجاه الاسلامي

ثانيا : الاتجاه القومي العربي

ثالثا : الاتجاهات الإقليمية ، عروبية ومعادية للعروبة ، شيوعية ومحافظة .

## اولا : الاتجاه الاسلامي

( ١ )

عاش العرب منذ الفتح بالاسلام ، حتى لقد اصبح دينهم وثقافتهم وتاريخهم . وشهد العرب مع امتداد سلطة الخلافة مجدهم السياسي والثقافي . وكان كل تمرد على الخلافة يعني ضعفا . ولقد انتقلت الخلافة من العرب الى العثمانيين ، ولكن هذا لم يكن يعني شيئا بالنسبة لرجال الدين وللمسلمين عامة . ان التكوين الاسلامي لثقافةهذه الشعوب ولتاريخها ، جعلها تعتبر الاسلام جامعة ، والخلافة موحدا . ولقد شهدت البلاد العربية نوعين من التجديد الديني خلال قرنين من الزمان ، الاولى : حركات محمد عبد الوهاب ، والسنوسي ، والشوكاني ، التي امتدت من البلاد العربية الى افريقيا ، وبقية العالم الاسلامي ، وكانت تسعى لتطهير الدين من البدع والخرافات التي لصقت به .. انها حركة تجديد ديني ، ولكنها كانت ذات مضمون سياسي ايضا . ولقد اصطدمت هذه الحركات بالخلافة في الاستانة ، وبالاستعمار الغربي . إن الحرب التي شهدتها الجزيرة العربية بين الوهابين وجيوش محمد علي ممثلا للسلطنة ثم جيوش الاتراك كانت ضارية وقاسية . ولم تكن الحروب التي خاضتها السنوسية في ليبيا او حركة المهدي في السودان اقل ضراوة منها . كانت الخلافة ترى في هذه الحركات خروجا عليها، وعلى الرغم من ذلك ، فان هذه الحركات استطاعت ان تستقطب جماهير لا حدود لها في المناطق التي قامت فيها . ولقد عجزت الخلافة عن قمعها ، ولولا الاستعمار الغربي واسلحته الحديثة ، لكان لهذه الحركات شان اكبر مما كان لها .

الثانية : حركة الافغاني ومحمد عبده ومحمد رشيد رضا . وكانت هذه الحركة ايضا حركة تجديد ديني وسياسي ، الا انها لم تستطع ان تحول دعوتها الى حركة « سياسية دينية ثورية » ، تحقق اهدافها بالتنظيم والقوة ، كما فعلت الوهابية والسنوسية . ولقد ربطت هذه الحركة بين التجديد الديني والسياسي ، لانها كانت ترى ان « الاستبداد السياسي متولد عن الاستبداد الديني » ، او « انهما اخوان او صنوان قويان بينهما رابطة الحاجة على التعاون بتدليل الانسان» كما يقول الكواكبي في « طبائع الاستبداد » (١) اما محمد عبده

---

١ ـ ص ـ ١٢ ـ طبائع الاستبداد ط. القاهرة

فيرى : اولا : ان في الدين مـا يكفل الاصلاح . ثانيا : ان العدول عنه الى ما يسمى طـرق الادب والحكمـة العارية عن صبغة الديـن ، يتطلب انشاء بناء جديد ، لا يوجد من مواده شيء « ولا يسهل ايجاد احد مـن عماله » . ثالثا : « ان عنـاء ارجـاع الناس الى الدين أخف كثيرا من عناء استحداث مذهب لا المام للناس به » (٢) . وكان غرض هذه الدعوة ـ كما جاء في مقدمة كتاب جمال الديـن الافغاني » الـرد علـى الدهريين » « اصلاح الاسلام ليسايـر المدنيـة الحديثة ، وتحرير الشرق من سيطرة الغرب » (٣) .

كان هذا الاتجاه ، هـو الاتجـاه السياسي والفكري الاقـوى فـي الوطن العربي ، منذ بدء النهضة حتى سنة ١٩١٦ ، حين بدا الاتجاه القومي ينازعه ، وان كان اقل منـه قوة . وكان دعاة هذا الاتجاه ، الذي يستمد قوته مـن التراث الاسلامـي ، ذي الجذور العميقة في الارض العربية ، يعتقدون ان في العصبية الدينية، ما يغني عن العصبية القومية (٤) . وكان هؤلاء يرون مـا وصل اليـه فساد الامور في السلطنة العثمانية ، ولكنهم كانوا يعتقدون ان « بقاءها سياج »(٥)

ومن السهل اثبات قـوة الاتجاه الاسلامي في هذه المرحلة . فلقـد انشيء الحزب الوطني في مصر سنة ( ١٨٨٢ ) ، وكان في مقدمة برنامجه اعتراف بسلطة الباب العالي ، وبـان « جلالة السلطان عبد الحميد مولاهم وخليفة الله في ارضه وامام المسلمين» (٦) . « وحين ثار عرابي علـى فساد اساليب الحكم فـي مصر ، وعلـى تغلغل النفوذ الاجنبي ، لـم يخطر بباله ان يخلع طاعة الخليفة او يخرج عليه ، فهو يعرض عليـه خطواته ، مستمدا منه السلطة في كـل مـا يفعل » (٧) . ولقد حارب الخديوي توفيق احمـد عرابـي بمنشورات تتهمه بالخروج علـى الخلافـة ، وعصيان اوامر امير المؤمنين (٨) . ولقد تاسست العروة الوثقى للعمل من اجل الوحدة الاسلامية تحت لواء الخلافة ، والجامعة ـ مجلة فـرح انطون ـ التي اصدرها في مصر كـان اسمها الجامعة العثمانية ، والهلال سميت كذلك تبركا بالهلال العثماني » (٩) . ولقد قام الحزب الوطني الذي انشاه مصطفى كامل من اجل هـذا

---

٢ ـ الثوري العربي المعاصر ـ للمؤلف ـ ص ـ ٢٧ ـ ٢٨ ـ ط. دار الطليعة ـ بيروت

٣ ـ الرد على الدهريين صفحة ـ ٩ ـ ط. القاهرة

٤ ـ تاريخ الاستاذ الامام محمد عبده للاستاذ محمد رشيد رضا ـ دار المنار ـ القاهرة

٥ ـ نفس المصدر ص ـ ١٩٢ ـ

٦ ـ الاتجاهات الوطنية في الادب المعاصر ـ محمد حسين ص ـ ١ ـ ج. (١) ـ مكتبة الاداب ومطبعتها ـ القاهرة ط. (٢)

٧ ـ نفس المصدر ـ نفس الصفحة

٨ ـ نفس المصدر ـ نفس الصفحة

٩ ـ الثوري العربي المعاصر ـ للمؤلف ـ ص ـ ١٠٧ ـ

الغرض ، وقامت جريـــدة المنـــار ومؤسسة المنار بدور كبير في هـذا الميدان ، باشراف السيد محمد رشيد رضا . ولعل في الادب عامة والشعر خاصة خير دليل على ما ذهبنا اليه.

كانت هـــذه الموجة رد فعـــل للاستعمار الغربي . وكـان يؤججها انتصار الغرب لنصارى البلقـــان ، ومحاولاته المستمرة لاقتسام « تركة الرجل المريض » ، بالتدخل تـارة ، وبالغزو طورا .

وكان هـــذا الاتجاه ذا مضمـون سياسي اجتماعي ، يمكـــن ايجازه فيما يلي :

اولا : قيام دولة اسلامية ،تجمع كل الشعوب الاسلامية تحت رايتها ، وتتخذ من القرآن والسنة منهجـــا ودستوراً . وكان الاعتقاد السائـــد آنذاك ، هو ضرورة المحافظة علـــى السلطنة العثمانية ، واعتبارها خلافة للمسلمين . وقد تعرض هذا الاعتقاد لهزات ، اذ طالب بعض مـن العرب بانتقال الخلافة الى العرب ، وراى آخرون ضرورة أن يحافظ كل قطـر اسلامي على كيانـــه الخاص ضمن المجموعة الاسلامية . وكان من نتيجة ذلك ان نشأت فكرة « التجمع الدولي الاسلامي » .

ثانيا : الاصلاح الديني ، وهـــو اساس كل اصلاح ، ولـــن يتـم اي اصلاح بدونـــه ، وهـــذا الاصلاح « اخلاقي » في جوهره ، يتم باحياء القيم الدينية في السلوك والمعاملة ، وباحياء علوم الدين . يقـول الشيخ الامام محمد عبده « اما العلم الـذي نحن بحاجة اليه فيظن قوم انه علـم الصناعة الخ ... وهذا ظـن باطل ، فاننا لو رجعنا الى ما يشكوه كل منا نجد امرا وراء الجهل بالصناعات وما يتبعها » (١٠) .

ثالثا : ان الاسلام وحده من بيـن العقائد جميعا ، هـــو الصالح لكـل زمان ومكان ، القادر على انارة سبلنا اذا عدنا اليه مجتلين . انـــه يتسع للعلم ، ويتسع للعدالـة الاجتماعية ، ويضمن للانسان ، الرجل والمراة ، كل الحقوق والحريات ، التـــي يطمح اليها . هذه الحقوق والحريات التي عجزت الفلسفات الحديثـــة عـــن تحقيقها . ومـا حدث للمسلمين من ضعف وانحلال ، ليس راجعا الـــى الاسلام في ذاته ، بـــل يعود الـى المسلمين انفسهم ، والـى مؤامرات الاجانب ومكائدهم .

ولقد كان دعاة هذا الاتجاه فـــي البدء ضد الاستعمار ، وقاموا بدور في مقاومته ، نذكر مـن هؤلاء جمال الدين الافغانـــي ، ومحمد عبـــده ومصطفى كامـــل وشكيب ارسـلان وغيرهم . وكانت المعركـــة بالنسبة لهم استمراراً للحروب الصليبيـة : فهي حرب مـع الاستعمار ، وحوار حاد مع المسيحية . ويكفي ان نشير في هذا الميدان الـى كتاب « الاسلام والنصرانية بين العلـــم والمدنية » ، الذي كان ثمرة حوار على صفحات

---

١٠ ـ رائد الفكر المصري ـ عثمان اميـــن ص ـ ٩٢ ـ

مجلة الجامعة ، التي كان يصدرها فرح انطون . ولم تكن الادلة تحوج هؤلاء ، في وقت بدأ فيه غزو الاستعمار الغربي للعالم الاسلامي ، يتخذ شكلا منظما . وكان بعض متعصبي المسيحية ، لا يدعمون هذه الحملة فحسب ، بل يبعثون روح الحروب الصليبية .

ولا بد ان نذكر لهم ايضا ، انهم حملوا لواء الدعوة من اجل الشورى ، بالمعنى الاسلامي ، وانهم نددوا بالفساد والاستبداد . ولكنهم جميعا كانوا يؤمنون بالتدرج ، لا بالطفرة . يقول الكواكبي : « الاستبداد لا يقاوم بالشدة انما يقاوم باللين والتدرج » (١١) . وكان محمد عبده يرى مثل هذا الراي ، « وكانت غايته رفع مستوى الامة ، وتقويم اخلاقها ، والنهوض بها نهضة اجتماعية في تدرج واناة ، ومن غير عنف ولا طفرة » (١٢) .

## ( ٢ )

لقد تعرض هذا الاتجاه ، خلال العقد الثاني من القرن العشرين لاحداث هامة يمكن تحديدها فيما يلي :

١ ـ الغزو الاستعماري ، من غزو فرنسا للمغرب ، الى غزو ايطاليا لليبيا ، الى الحرب العالمية الاولى ، التي استهدفت الامبراطورية العثمانية كلها .

٢ ـ اعلان الشريف حسين للثورة العربية من مكة .

٣ ـ ظهور كمال اتاتورك والغاء الخلافة .

ولقد اثارت هذه الاحداث الشعور الاسلامي بنسب مختلفة . اما الاول منها فقد اثار حفيظة العالم الاسلامي بلا استثناء . كانت صرخات الافغاني والكواكبي وعبده ، قد اوجدت اليقظة والحذر ، وكان المسلمون قاطبة ـ ما عدا بعض الحكام ـ معادين للاستعمار الغربي ، لا كاحتلال فحسب ، بل كحضارة وثقافة ايضا. واذا كانوا متفقين على مقاومة الاستعمار ، فلم يكونوا اقل اتفاقا على ضرورة بقاء الخلافة . في هذا الجو بالذات ، اعلن الشريف حسين الثورة ضد الاتراك ، بالتفاهم مع الانجليز . لقد كانت روح البيان الذي اصدره بعض علماء الحجاز في تاييد ثورة الشريف وتبريرها اسلامية ، ولكن مطالب الشريف كانت تتلخص في قيام دولة عربية تضم « المشرق العربي » . وكان من نتيجة ذلك ان قاومت الشريف حسين « الاوساط الاسلامية » في مصر والهند ، واستنكرها حكام مسلمون ، وامراء وشيوخ وزعماء قبائل ، بينما ايدتها الاحزاب السياسية في سورية وفلسطين ، نذكر منها اللامركزية والعربية الفتاة ، وايدتها ايضا غالبية السكان ، ومن ضمنهم رجال الدين.

---

١١ ـ طبائع الاستبداد ـ عبد الرحمن الكواكبي ص ـ ١٣١ ـ

١٢ ـ رائد الفكر المصري ـ عثمان امين ص ـ ٢٩ ـ

ولم تظفر حركة الشريف حسين بالنجاح في الوطن العربي ، او في العالم الاسلامي للاسباب التالية :

اولا : كان كثير من الحكام يطمعون بالخلافة ، ولم يكن واحد منهم مستعدا للتنازل عن ملكه ، او عن بعض صلاحياته .

ثانيا : كان الاستعمار البريطاني ، يقاوم اية وحدة عربية او اسلامية .

ثالثا : ارتاب المسلمون عامة بخطوة الشريف حسين ، واعتبروها تآمرا على الخلافة ، وخروجا عليها ، وخدمة للاستعمار الغربي .

هذا بالاضافة الى ان الشريف حسين ، كان لا يملك القوة لتحقيق اهدافه .

ونجد في شعر هذه الفترة ونثرها ما يعبر تعبيرا حارا عن استنكار فعلة الشريف حسين . ونقدم هنا بعض ابيات للشاعر محرم (١٣) :

نبئت ما زعم الشريف وقومه
فسمعت ما لم تسمع الاذنان
خدعوه اذ ضاق السبيل بمكرهم
ورموا بآمال اليه حسان
فاباح ما منعت فوارس هاشم
وحمت ولاة البيت من عدنان
ياذا الجلالة لاسعدت بتاجه
ملكا سواك به السعيد الهاني
انسيتم الآيات بالغة فما
بصحائف التاريخ من نسيان
الترك جند الله لولا باسهم
لم يبق في الدنيا مقيم اذان

١٣ ـ الاتجاهات الوطنية في الادب المعاصر ـ محمد حسين ـ

وكان الحدث الثالث والاخير ، الحركة الكمالية في تركيا ، التي لم تحرر تركيا من نير الاستعمار الاجنبي فحسب ، بل قضت على الخلافة . ولقد وقف الراي العام الاسلامي من هذه الحركة موقف المؤيد باديء ذي بدء ، ولكنه اصيب بهزة اثر قرار فصل الدين عن الدولة . وقامت فئة تناصر هذه الخطوة ، وتعتبر اعلان الجمهورية عودة الى حكم الشورى ، كما تعتبر فصل الدين عن الدولة تعزيزا لمكانة الخليفة في العالم الاسلامي . وكانت المعارضة هزيلة ، نتيجة الحماسة الشاملة التي قوبلت بها انتصارات مصطفى كمال . وزاد من الحماسة لمصطفى كمال موقف الخليفة المتخاذل ، الذي اباح دمه بفتوى ، والتجأ الى الانجليز . غير ان الخلاف زال حين لجأ مصطفى كمال الى الغاء الخلافة .

لاول مرة منذ اعلان الاسلام ، يجد المسلمون انفسهم بلا خليفة . كأن الشريف حسين ، بعد سنوات من اعلان ثورته قد فشل ، وكان الانجليز والفرنسيون قد احتلوا اجزاء الوطن العربي ، التي لم يحتلوها قبل الحرب العالمية الاولى . اما تركيا فقد كانت تسير في طريق الجمهورية العلمانية . اصدر ستة عشر عالما من الازهر ـ بعد اربعة ايام من اعلان قرار الغاء الخلافة ـ بيانا يعلنون فيه بطلان ما فعله الكماليون . وكان اهم ما ورد في البيان : ١ ـ بطلان قرار العزل ،

لانه صادر عن فئة قليلة ، ولان البيعة بيعة شرعية . ب ـ حاجة المسلمين للخليفة « الذي هو الامام العام . لازم لزوم العقل للانسان والروح للجسد» جـ ـ ضرورة الاسراع في عقد مؤتمر « يقرر ما يراه في امر الخلافة من الطريق الشرعي » (١٤) .

وبدا النشاط من اجل عقد المؤتمر الاسلامي ، ترافقه نشاطات جانبية ، ومساع متعددة لنصرة هذا او ذاك من « الحكام » ، وتأييد اختياره خليفة. وبينما استنكر علماء الازهر ترشيح الحسين بن علي للخلافة ، قام بعضهم يرشح فؤاد ملك مصر . وفي ٢٥ آذار سنة ١٩٢٤ ، اذاع علماء الازهر بيانا ، « افتوا فيه ببطلان بيعة عبد المجيد ، الذي كان الكماليون قد اقاموه قبل ان يلغوا الخلافة ، لان الاسلام ، لا يعرف الخلافة بالمعنى الذي تولاه به ، منفصلة عن السلطة » (١٥) ودعوا لمؤتمر يعقد برئاسة شيخ الاسلام ، يحضره ممثلون عن المسلمين ، في شعبان من سنة ١٣٤٣ اي ١٩٢٥ . وقامت عقبات في وجه المؤتمر ، مما ادى الى تأجيله اكثر من مرة ، فلم يعقد الا في ١٣ ايار سنة ١٩٢٦ . ولكن المؤتمر فشل ، وكانت اسباب فشله هي :

اولا : كثرة المرشحين للخلافة ، فبالاضافة للشريف حسين خليفة « فلسطين وشرق الاردن » ، كان هنالك ملك الافغان ( امان الله خان )، وكان هنالك ايضا الملك فؤاد .

ثانيا : انقسم العلماء الى فئتين ، فئة تقول بصلاحية مصر مركزا للخلافة ، وهذه الفئة تناصر الملك فؤاد ، وفئة لا ترى في مصر مركزا صالحا للخلافة ، او حتى لانعقاد المؤتمر ، وتدعو لانعقاده في « مكة »، او في اية عاصمة اسلامية لا تخضع للاستعمار .

ثالثا : كان سعد زغلول رئيسا لوزارة مصر آنذاك ، وكان ضد فكرة الجامعة الاسلامية .

رابعا : كان الانجليز ضد الخلافة ـ كما ذكرنا سابقا ـ

لقد ساهم الاستاذ محمد رشيد رضا في الدعوة لهذه المؤتمرات وكان مؤيدا له ، ولكنه كان غير راض عن موقف علماء الازهر ، وخاصة اعلان بطلان قرار خلع السلطان عبد المجيد، ثم اعتبارهم خلافته غير شرعية ، كما كان غير راض عن سير اعمال المؤتمر . وقد استنكر كما استنكر غيره من العلماء مبايعة سورية وفلسطين للشريف حسين خليفة . وهذا لا يعني انه كان ضد الخلافة ، فهو مؤمن بها ، مدافع عنها ، ويرى امكانية اختيار خليفة شرعي ، الا ان « علة العلل هي جهل العالم الاسلامي، وتخاذله وعدم وجود هيئة تمثل مراد الشرع من الحل والعقد ، او يكون لها نفوذ معنوي ، يحترمه العالم الاسلامي ، كاحترام اهل الحل

---

١٤ ـ المصدر السابق ج ٢٠ـ ص ـ٢٧ـ٢٨

١٥ ـ المصدر السابق ص ـ ٤٠ ـ

والعقد » (١٦) . ولـــم يكن السيد رشيد رضا يعتقـــد حينذاك بـأن الظروف مؤاتية لعودة الخلافة ، وهو اذا ما دعا لهـا فمن اجـل العلـم والتذكير . ذلك ان قيامها لا بد لـه من دولة قوية مستقلة ، وكان يـرى « ان الترك بحكومتهم الجديدة » هم وحدهم القادرون على اقامتها ، ثـم امل خيـرا مـن دولـة الاخـوان الوهابيين ، بعد استيلائهم على مكـة والمدينة ، والقضاء علـى دولة علـي بـن الحسين فـي الحجـاز (١٧) . وكان شعوره بضرورة وجود هـذه الدولة نابعا من احساسه « بأن تيار الالحاد لا يسهل صـيده بالوسائل العلمية ، التي ـ كما يقول ـ جرينا عليها بهذا البطء والضعف » (١٨) .

## ( ٣ )

نشأت جمعيـة الشبان المسلمين سنة ١٩٢٧ ، وهـي السنة التـي فشل فيها اخر مؤتمر من مؤتمرات الخلافة الآنفة الذكر. وكان قيام هذه الجمعية تعبيرا عـن احساس الراي العام المسلم بضرورة العمل ، اي نوع من العمل ، ورد فعـل لقيام جماعة الشبان المسيحيين . الا ان جمعيـة من هذا الطراز ، ما كانت قادرة على القيام بعمل قيادي . فـي السنـة التالية نشأت جماعة اخـرى ، كانت اشد خطرا وابعد اثرا ، هي « جماعة الاخوان المسلمون » .

ويمكن ايجاز مباديء هذه الجماعة فيما يلي :

١ ـ ضرورة قيـام الدولـة الاسلامية ، على كتاب اللـه وسنة رسوله ، ولا تقوم هـذه الدولة الا بالخلافة .

٢ ـ العمـل لتحقيـق الجامعـة الاسلامية عبر مصر والوحدة العربية، وهم لا يعتقدون ان هنـاك تعارضا بين هذه الاغراض .

٣ ـ العودة الى الشريعة الاسلامية، لمواجهة مشاكل الحياة كلها ، المادية منها والروحية .

اما وسائلهم لتحقيق هذه الاهداف فتنحصر فيما يلي :

١ ـ الدعوة .

٢ ـ اختيار الانصار واعدادهم .

٣ ـ العمل .

وظلت الجماعة تتقدم فـي مصر ؛ اما في خارج مصر ، فقد انشيء اول فرع لها فـي سورية . وبعـد ان تخفى سنوات وراء اسماء متعددة ، التزم عيـن الاسم ، بعـد ان اتفـق سنة ١٩٤٤ علـى ان تكون التسمية ( الاخوان المسلمون ) شاملة لكـل الشعب والفروع في العالم الاسلامي. وقد بدا عمل الاخوان فـي فلسطين والاردن والسودان سنـة ١٩٤٦ ، وفي العراق سنة ١٩٤٧ .

كان انتشار الاخوان واسعا فـي مصر ، محدودا في سورية ، بادئا في

١٦ ـ السيد رشيد رضا او جهاد اربعين عاما ـ الامير شكيب ارسلان ص ـ ٣٥٨ ـ مطبعة ابن زيدون ـ دمشق

١٧ ـ المصدر السابق ص ـ ٣٧٣ ـ

١٨ ـ المصدر السابق ص ـ ٣٧٣ ـ

الاقطار العربيـــة الاخرى ، عندمـا بداوا يتعرضون لضغط شديد فـي مصر . وفي الثامن من ديسمبر سنة ١٩٤٨ ، سنة النكبة ، حلت الجماعة فـــي مصر ، وصودرت ممتلكاتهـا واموالها ، واضطهد رجالها . وبعـد عشرين يوما اغتال الاخوان النقراشي، رئيس الوزراء . وعلى الرغم مـــن الاعتقالات التي جرت في صفوفهم ، فان المرشد الاعلى حسن البنا ظـــل طليقا ، وفي ١٢ شباط ١٩٤٩ تـــم اغتياله . وحين عـاد الوفد للحكـم سنة ١٩٥٠ اعيدت للاخـوان بعض اموالهم ، ورفع عنهـــم الاضطهاد . وقد اشتركوا سنة ١٩٥١ في مقاومة القوات البريطانية المحتلة .

وقد حلت الجماعة فـــي سورية بتاريـخ ٢٧ ــ ١ ــ ١٩٥٢ بتهمـــة الاشتغال بالسياسة ، ولكن هذا ، لم يكن مانعا لها من الاستمرار بالعمل.

وفي تشرين اول سنـــة ١٩٥٤ ، قامت الجماعـــة بمحاولة لاغتيـــال الرئيس جمال عبد الناصر فوجهت لها السلطة ضربة قاصمة .

بعد هذا التاريخ ، ربطت الجماعة مصيرها بالرجعية الحاكمة في البلاد العربية ، فاشتركت بالانقلاب الرجعي في الاردن سنة ١٩٥٧ ، وتحالفت مع الرجعية في سورية الخ .

لقد كان قيـــام حركـة الاخوان المسلمين انتقالا بالتيار الاسلامي من حالة العفوية والفوضى الـــى حالـة النظام العمل . وعلى الرغم مـن انهم كانوا يؤمنون بالتدرج والتطـور ، ولا يؤمنون باستعمال القـوة الا حيث لا يجدي غيرها ، فانهم ، انشاوا جهازا عسكريا ضمـــن تنظيمهم ، واشترك اعضاؤهم في حرب فلسطين والمقاومة في القنال ، كمـــا دبـــروا عمليات الاغتيالات والاعتداءات العديدة .

ونستطيع ان نقول بأن حركـة الاخوان ، من الناحية النظرية ، كانت استمرارا لحركـة التجديد الديني ، التي بدات مع الوهابية ، وترعرعت مع المصلحين امثال الافغاني وعبـده والكواكبي ورشيد رضا وغيرهم .

( ٤ )

خرج الشيخ علي عبد الرزاق سنة ١٩٢٥ على الناس بكتابـه « الاسلام واصول الحكـــم » ، فاحدث هـزة كبيرة ، استوجبت حرمانـه مـــن العالمية . ولم يكن ما جاءه علي عبـد الرزاق عاديا ، فقـــد اشترك فـــي المعركة التي قامت حـــول الخلافـة آنذاك ، وكان من رايه ضرورة الفصل بين « الجانب الروحـــي والجانـب الزمني مـــن المعتقد الديني » (١٩) . وقد ادرك علي عبد الرزاق ميزة كل مـــن الجانبين ، فالاول ثابت غيـر خاضع لمنطق التطور ، امـــا الثانـي فمتحول وخاضع لمنطـــق التطور . وكان ما هدف اليـــه الشيخ هـــو السمو بالجانب الروحي ، ووضعـه

---

١٩ ــ مجلة جوار ــ العدد ١٥ ــ السنة الثالثة ــ العدد الثالث آذار ــ نيسان ١٩٦٥. « بعض وجوه فكرنا المعاصر فـــي الديـــن والفلسفة » ، ماجد فخري .

في منزلة تليق به ، بالارتفاع به من الدنيويات المتغيرة المتحولة ، الخاضعة لقوانين الطبيعة البشرية . يبدو ان الشيخ أحس بما يموج به العصر من تحولات ، فاراد ان يبعد الدين عن معركة هو الخاسر الوحيد اذا دخلها . ولن يتلافى الدين هذه المعركة ، الا اذا اعترف بضرورة التغير ، وقبل بكل ما جاءت به الحضارة الحديثة ، والتزم هو بامور الارواح ، بعد أن كانت مملكته شاملة الدين والدنيا .

على هذه الطريق سار خالد محمد خالد ، انما برؤية اعمق واوسع ، تتناسب مع التطورات التي حدثت منذ سنة ١٩٢٥ حتى ١٩٥٠ ، حين صدر كتابه « من هنا نبدا » . وقد ترسم خالد محمد خالد خطى علي عبد الرزاق في القول بالفصل بين ما هو روحي وما هو زمني ، ولكنه جاء أكثر نضجا واكثر عمقا . ان خالد محمد خالد يقبل الحضارة الحديثة ، ويربط بين الدين والفلسفة ، ويعتبر الاديان واحدة في روحها ، وقد نزلت كلها لخير الانسان ، وهي جزء من فكر الانسان وحضارته .

ولقد وجدت آراء خالد محمد خالد قبولا من التقدميين ، ولم تجد قبولا من العلماء .

ولا بد من ان نقدم في هذا المجال ، المفكر الجزائري ، مالك بن نبي الذي يعتقد « ان الحضارة لا تنبعث الا بالعقيدة الدينية » ، وان علينا ان نبحث عن الاصل الديني لكل حضارة (٢٠) . وهو يرى ان لا نهضة للعالم الاسلامي ، المتشابه المشاكل الا بالاسلام ، « فالدين وحده هو الذي يمنح الانسان هذه القوة ، فقد امد بها اولئك الحفاة العراة من بدو الصحراء ، الذين اتبعوا هدي محمد صلى الله عليه وسلم » (٢١) . ان الانطلاق من المبدا ، « ان الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بانفسهم » هو الانطلاق السليم . فنحن لسنا مستعمرين الا لان لدينا قابلية للاستعمار .

ويتحدث مالك بن نبي عن النجاح الذي حققته الحركة الاسلامية في الجزائر ، وعن القبول الذي وجدته، قبل ان تتعثر سنة ١٩٣٦ بالانزلاق في دروب السياسة ، هذا الانزلاق الذي لم تقم بعد . وهو لا يحلل اسباب هذا الانزلاق ، لانه يعتقد ان منطق الفكرة موجود ، وان ما ينقص العالم الاسلامي هو منطق العمل .

ومالك بن نبي داعية « كومنولث اسلامي » ، على غرار الكومنولث البريطاني ، انه نوع من الاتحاد الذي يأخذ العوامل الجغرافية والسياسية بعين الاعتبار . « الا ان التشابه يقف لدى مدى جد مبكر ، ولا يتيح لنا مثلا ان نتصور الرابطة العضوية للكومنولث الاسلامي مشخصة في

---

٢٠ ـ شروط النهضة ومشكلات الحضارة ـ مالك بن نبي ـ مطبعة دار الجهاد ـ القاهرة ص ـ ٥٥ ـ سنة ١٩٥٧

٢١ ـ المصدر السابق ص ـ ٦٦ ـ

« ملك » أو حتى في رئيس جمهورية، ولكن في « فكرة » ــ هي الاسلام ــ ممثلة في « مجمع دائم » ، يجسم « الارادة الجماعية » للعالم الاسلامي، ويمثل مصالحه العامة » (٢٢) . ان ما يطالب به مالك بن نبي ليس وحدة اسلامية في ظل الخلافة ، ذلك انه يطالب باعادة النظر في موضوع الخلافة ، انه نوع من الاتحاد يترك لكل ذي سلطان سلطانه .

ويرى مالك بن نبي ان هناك قوى داخلية ، تعمل لتكييف العالم الاسلامي مع الحياة العالمية الراهنة ، وان هناك قوى خارجية ايضا ، فاذا لم يحدث التوازن اللازم بين القوى الداخلية والخارجية ، تمزق العالم الاسلامي ، واصبح فريسة الشيوعية والاستعمار . وهذا خطر محقق خلال العشرين سنة القادمة . وعلى الرغم من ذلك ، فان بن نبي مؤمن ان « الاسلام يظل دائما القوة التي لا تحطم » (٢٣) .

يهدف هذا الاتجاه ــ كما نرى ــ الى تركيب راس اسلامية على جسم الحضارة الحديثة ، وهي محاولة توفيقية ، ظل انصارها قلة للاسباب التالية : ١ ــ انقسام المثقفين الى تيارين علماني وديني ، يقف كل منهما مقابل الاخر وضده ، ب ــ غلبة النزعة القومية على اتجاهات الجماهير . جـ ــ غلبة تيار الحضارة الاوروبية عمليا على البلدان المتخلفة ، وان كانت الافكار ما زالت متخلفة بعد .

(٥)

قبل ان نبحث في يسارية هذا الاتجاه ، لا بد لنا من ان نقدم بعض العوامل التي صنعت هذا الاتجاه ، فحددت بالتالي نوعيته . وهذه العوامل هي :

اولا : كانت حركة التجديد الديني ذات طابع سلفي ، فلقد اتجهت الى الماضي ، بدل ان تتجه الى المستقبل، صحيح انها بهذه العودة ارادت ان تعود بالاسلام الى منابعه الاولى ، وان تجرده مما علق به خلال عهود الجمود والانحطاط ، ولكنها عودة رومانسية على كل حال ، تدل على التعلق بالماضي ، اكثر مما تدل على الاتجاه نحو المستقبل .

ثانيا : كانت العودة للماضي ، غير قادرة بطبيعة الامر ، على اعادة « اسلام الرسول والصحابة » ، نتيجة اختلاف الظروف ، ولان الدعاة المجددين ، لم ينطلقوا من استيعاب شامل للظروف الجديدة ، بل انطلقوا من « فكرة قائمة » هي الاسلام ، انطلاقا تجريديا ، يبحث امور الاسلام ، قبل ان يبحث امور المسلمين .

ثالثا : طبيعة الدعاة المجددين . كان هؤلاء ذوي تربية دينية ازهرية او مماثلة . وكان احترامهم للاسلام وتعلقهم به نصا ولفظا ، وحرصهم

---

٢٢ ــ فكرة كومنولث اسلامي ــ مالك بن نبي ــ المكتب الفني للنشر ص ــ ٧٠ ــ ٧١ ــ سنة ١٩٦٠ .

٢٣ ــ المصدر السابق ص ــ ٧٩ ــ

عليه ، يشل قدرتهم على التجديد .

رابعا : وكان هؤلاء مع هذا كله يمتون بروابط متينة للعائلات ذات الامتيازات ، وللطبقات الحاكمة احيانا .

خامسا : وكانت الدعوة للتجديد غير منبثقة من الدين الاسلامي نفسه ، بمقدار ما هي منبثقة من الحاجة للرد على الحضارة الحديثة.

نتج عن هذا كله ما يلي :

١ ــ ان « الاتجاه الاسلامي » كان اتجاها غير ثوري في عهد الثورة ، فهو اتجاه دعوة واصلاح ، ودعاته يؤمنون بالتدرج لا بالطفرة . وهم على استعداد لقبول اي حاكم يعلن عن استعداده لخدمة الإسلام، والعمل تحت لوائه . ونورد في هذا المجال موقف محمد رشيد رضا من دولة الاخوان في الجزيرة العربية ، بعد استيلائهم على الاراضي المقدسة ، وهو ما اشرنا اليه سابقا . ويروى عن الكواكبي ، انه قام برحلة سنة ١٩٠١ ، في الجزيرة العربية والهند وافريقيا، بتكليف من الخديوي عباس الثاني ليدعو له بالخلافة ، ويحصل على التأييد له ، لقاء راتب شهري قدره خمسون جنيها (٢٤) . ويجب ان نذكر هنا ايضا استبشار دعاة الاتجاه الاسلامي بقيام دولة باكستان الاسلامية .

ولم يظفر دعاة هذا الاتجاه باي نجاح في السياسة منذ جمال الدين الافغاني حتى اليوم . ذلك أن الافغاني كان يميل الى المؤامرات السياسية ، بينما كان محمد عبده يميل الى الدعوة والاصلاح ، وقد شجب حركة عرابي وكان يعتبر مصطفى كامل مشهورا ، ويرفض اي تعامل مع الاحزاب ، وكان محمد رشيد رضا داعية تجديد ، ولكنه على الرغم من ذلك راي في توسع سلطان عبد العزيز آل سعود بادرة خير للعالم الاسلامي . وقام جماعة العلماء في الجزائر بجهود جبارة للدفاع عن العربية والاسلام ، ولاستنهاض همم الشعب للدفاع عن نفسه ، ولكنهم ما ان دخلوا ميدان السياسة حتى قادهم محترفوها الى الهاوية (٢٥) . ولم يكن الاخوان المسلمون احسن حظا من هؤلاء جميعا ، فلقد ارتكبوا من الاخطاء ، ما لا مكان هنا لتفصيله ، ولكننا لا بد من ان نذكر انهم كانوا حلفاء للرجعية، ضد التقدمية ، هذا ما حدث في مصر وسورية والاردن والعراق الخ.

٢ ــ ولم يكونوا عمليا دعاة تغيير شامل في التركيب الفوقي للمجتمع، فالدولة هي الدولة الاسلامية التقليدية ، امام يسمى خليفة المسلمين ، يتمتع بصلاحيات واسعة، ضمن نظام الشورى الاسلامي ، ( فاعف عنهم واستغفر لهم، وشاورهم في الامر ، فاذا عزمت فتوكل على الله ) . « اما طريقة الشورى ، فلم

---

٢٤ ــ عبد الرحمن الكواكبي ــ الدكتور سامي الدهان ــ دار المعارف ص ــ ٢٩ ــ ٣٠

٢٥ ــ شروط النهضة ومشكلات الحضارة ــ مالك بن نبي

يحدد لها نظام خاص ، وتطبيقها اذن متروك للظروف » (٢٦) ، ولـــم يكن غريبا ما تمتع بـــه المرشد الاعلـى لجماعة الاخوان المسلمين حسن البنا من صلاحيات ، ذلك انه مستمد من المكانة التي يخص الاسلام الامام بها ، (٢٧) . كما ان دعاة الدولة الاسلامية لم يكونوا دعاة تغيير فـــي ميـدان الحياة الاقتصادية ، لان الاسلام يبيح الملك والارث ، ولا يحتـــم المساواة الاقتصادية ، هذا ما يراه اكثر دعاته تحررا ووعيا (٢٨) . ولقد كان ترويج مثل هذه الافكار في عهـــد الثورات الاشتراكية والشيوعيـــة خدمـــة للرجعية والاقطاع وراس المال .

٣ ــ رافق التجديد الديني ظهور النهضات القومية في الشرق ، وكان بطبيعته متعارضا مع هذه النهضات . ولقد حارب دعـــاة التجديد الديني الحركات القومية باسم الدين ، فـي بلاد كان الدين وما زال ، يحتل قلوب الجماهير فيهـــا . كانت المرحلـــة التاريخية مرحلة قوميات ، رغم انف دعاة الدين ، وكان دعـــاة التجديد الديني ، يريدون ان يعودوا بالتاريخ الى الوراء ، ليجعلوا المرحلة مرحلـة اديان . وهكذا كانوا مع الخلافة ، مع انها تركية في روحها ووضعها ، ضد الحركة العربية مثلا . وفي مثل هذا الجو برزت الدعـــوات الاقليميـــة ، ووجدت الجو المناسب للنمو .

٤ ــ وكان دعاة التجديد الدينـي « ايمانيين » ، الايمان عندهم مصدر العلم والمعرفة . وهم اذا قبلوا بعض ثمرات الحضارة الحديثة ، لا يقبلون روحها . حدث هذا في عصر الثورة العلمية ، وفي الوقت الذي اخـذت فيه العلمانية تنتشر فـــي ارجـاء المعمورة .

٥ ــ قامت حركة التجديد الديني بحرب شعواء ضـــد الاشتراكيـــة والشيوعية ، وكـــان جمال الديـن الافغاني رائـــد هذه الحملة بكتابـه « الرد على الدهريين » . ولم تكـن الحرب ضد الاشتراكية والشيوعيـة بل ضد الفكـــر المادي مصدرهما . يقول الافغاني : « كيفما ظهر الماديون، وفي اية صورة تمثلوا ، وبين اي قوم تجمعوا كانوا صدمة جديدة على بناء قومهم ، وصاعقة مجتاحـة لثمـــار امهم ، وصدعا متفاقما فـــي بنيـة جيلهم ، يميتون القلـــوب الحيـــة باقوامهم ويبثون السم فـي الارواح بآرائهم ويزعزعون راســـخ النظـام بمساعيهم ، فما رزئت بهم امة ، ولا مني بشرهم جيل الا انتكست مثله ، وسقط عرشه ، وتبددت آثار الامـة وفقدت قوامها ووجودها » (٢٩) .

---

٢٦ ــ العدالة الاجتماعية فـــي الاسلام ــ سيد قطب ــ دار احياء الكتب العربيـة ط. الخامسة ص ــ ٩٦ ــ ٩٧ ــ سنة ١٩٥٨

٢٧ ــ هذا بالاضافة لعوامـــل اجتماعيـة وسياسية اخرى ليس هنا مجال ذكرها

٢٨ ــ العدالة الاجتماعية فـــي الاسلام ــ سيد قطب ص ــ ٣٠ ــ

٢٩ ــ الرد على الدهريين ــ الافغاني ص ــ ٢٩ ــ ٣٠ ــ

اما اهـــم اسباب محاربة الافغانـــي للمادية فهي :

اولا : انها تسعى «لتقرير الاشتراك في المشتهيات ، ومحـــو حـــدود الامتياز ، ودرس رسوم الاختصاص حتى لا يعلو احد علـــى احـــد ، ولا يرتفع شخص عن غيره في شيء ما ، ويعيش الناس كافة علـــى حـــد التساوي ، ولا يتفاوتـــون فـــي حظوظهم » .

ثانيا : نبذ المادية « لكـــل تكليف دينـــي وغرسها بـــذور الاباحـــة والاشتـــراك ، وزعمهـــا ان الآداب الآلهية جعليات خرافية ، وان الاديان مخترعات احدثهـــا نقص العقـــل الانساني ، وجهرها بانكار الالوهيـــة والتشنيع على الانبياء » (٣٠) .

ولا يزال موقف دعـــاة التجديد الديني مماثلا لموقف الافغاني ، مـــع مراعاة تغيـــر الالفاظ ، واساليـــب التعبير .

وكانت معاداتهم هـــذه للعلـــم والاشتراكية والشيوعية ، تجمعهـــم مع الرجعية علـــى طريق واحـــد . ويجب الا ننسى ان تكوينهم الثقافي، وارتباطاتهم الطبقيـــة ، وامتيازاتهم الشخصية ، كانت هي السبب فـــي موقفهم هذا .

٦ ــ غلبت على الفكر الديني عنـــد المسلمين طبيعـــة الحجاج والوعظ ، ولقد جاءت ظروف معركة التجديـــد الديني ، لتزيده غنى في هذا الميدان، وكان مـــن نتيجـــة هـــذا ان سيطرت روح الوعظ والمحاجة علـــى اجيال كاملة من ابنـــاء شعبنا ، فاصبحت تستعيض عـــن البحث والتحليل ، بالوعظ والخطابة ، وعـــن التعمـــق بالتنميق .

وانه لضروري ان نذكر هنا ان قوة هذا الاتجاه ، لم تكن ناشئة من تغلغل الثقافة الاسلامية في ارضنا فقط ، ذلك ان تكويـــن مجتمعنا ، قريـــب العهد بالبداوة ، البدائي في زراعته، شبه الاقطاعي ، هـــو التربة الخصبة التي حضنت مثـــل هـــذه الافكار وغذتها .

بعد هذا كله هـــل كان الاتجـــاه الاسلامي من اليسار او من اليمين ؟

لقد كان من اليمين ، ولو انه وقف ضد الاستعمار فـــي بعض المراحل ، ذلك ان اليســـار كان الثورة .. الثورة البرجوازية التي شغلت العالم فـــي القرن التاسع عشر . صحيح ان هذا اليسار كان بعيدا عـــن ارضنا فـــي اواخر القرن الماضي ، الا ان الاتجـــاه الديني كان يرفضه عن بعد ، وحينما اخذ يترعرع وينمو في بلادنا ، فـــي اوائل القرن العشرين ، شن عليه دعاة التجديد الديني حربا صليبية .

قام هذا الاتجاه ضد مطنق المرحلة، الذي كان يسير فـــي اتجاه قومي ، وضد منطق العصر الذي يسير نحو العلمانية والاشتراكية ، وضد منطق التاريخ ، الذي يتحرك الى الامـــام ابدا . ولقد استطاع ان يشل قـــوى اساسية مـــن قوى شعبنا ، آمنت بالله ورسوله ، وبدعـــاة دينـــه المعاصرين ، مـــن « مجددين » ومحافظين ، كيفمـــا كانت افكارهم ومواقفهم **( البقية في العدد القادم )**

---

٣٠ ــ المرجع السابق ص ــ ٦٣ ــ ٦٤ ــ

# الحركة الشيوعية في الوطن العربي

ناجي علوش

## رابعا : التجارب الشيوعية في الوطن العربي

( ١ )

هنالك عدد من الظروف التي حددت شروط نمو الاحزاب الشيوعية في الوطن العربي ، ورسمت اتجاهاتها الفكرية والسياسية . ويمكن ان نوجز هذه الظروف فيما يلي :

اولا : مباديء الماركسية ، واتجاهات الشيوعية العالمية بعد ثورة اكتوبر الاشتراكية .

ثانيا : التركيب السياسي ـ الاجتماعي للمجتمع العربي بعد الحرب العالمية الاولى .

ثالثا : التكوين الاجتماعي للاحزاب الشيوعية في البلاد العربية .

رابعا : التكوين الايدولوجي للحركة العربية وموقفها من الشيوعية والاحزاب الشيوعية .

### ١ ـ الماركسية واتجاهات الشيوعية العالمية بعد ثورة اكتوبر

الشيوعية هي ايدولوجية البروليتاريا وحركتها ، وهي ايدولوجيا عالمية شعارها « يا عمال العالم اتحدوا » . وعلى الرغم من ذلك فهي ليست ايدولوجيا « كوزموبوليتية » . انها ترى حتمية قيام عالم « غير قومي » في المستقبل البعيد ، ولكن عبر مرحلة القوميات . لهذا دعم ماركس وانجلز كفاح ايرلندا في سبيل التحرر مثلا. ولكن المسألة القومية ظلت في عهد ماركس وانجلز مسألة ثانوية . (١) كانت المسألة الاساسية هي مسالة

١ ـ الياس مرقص ـ الماركسية في عصرنا ـ دار الطليعة ط. اولى شباط ١٩٦٥ ص ـ ١٦٣ ـ

الثورة البرولتارية في اوروبا وامريكا الشمالية . فالثورة البرولتارية هي التي ستحرر شعوب المستعمرات . « وقد دعا انجلز البرولتاريا بعد انتصارها الى « ان تاخذ بيدها شعوب المستعمرات ، وان تقودها بما يمكن من السرعة نحو الاستقلال » (٢) وكان انجلز يخشى ان تقوم بعض هذه المستعمرات بثورات ضد النظم الاشتراكية الجديدة ، وكان يرى انه « يجب على البرولتاريا ان تدعها وشانها » اذ « لا يجوز للبرولتاريا المنتصرة ان تفرض بركتها او سعادتها على امة اجنبية دون ان تقوض بهذا العمل دعائم انتصارها » (٣) .

ويبدو ان ماركس كان اكثر مقدرة على رؤية البعد الآخر للمشكلة ، فهو في مناقشاته مع الاشتراكيين الروس سنة ( ١٨٧٠ ) اقر بامكان تجاوز روسيا للمرحلة الراسمالية من التطور (٤) . ولكن حديثه اقتصر على روسيا اولا ، وظل محدود الاثر ثانيا ، اذ انه لم يعتبر اضافة لمضمون الثورة البرولتارية .

وظل الامر يعتبر مسالة ثانوية حتى جاء لينين . وقد استطاع ان يكتشف الابعاد الجديدة للثورة العالمية . ذلك انه راى ان فلاحي روسيا هم حليف البرولتاريا (٤) ـ وان على البرولتاريا ان توجه نضال الفلاحين ، وان تدخل « النضال الطبقي » الى القرية ، كما انه اكتشف في الوقت ذاته ان الشعوب المستعمرة في الشرق ، هي حليف البرولتاريا في كفاحها لاسقاط الامبريالية . ويعود اهتمام لينين بهذا الموضوع الى سنة ١٩٠٠ ، حين نشر مقالا عن الصين في جريدة « ايسكرا » . وقد نشر ايضا مجموعة مقالات في الجريدة ذاتها ما بين سنة ١٩٠٨ و ١٩١٢ ، مثل « مواد ملتهبة في السياسة الدولية » و « يقظة آسيا »، و « اوروبا المتاخرة وآسيا المتقدمة » (٥) معتبرا ان « يقظة آسيا في مطلع القرن العشرين » « بداية عهد جديد في التاريخ العالمي » .

وحين قامت الحرب العالمية الاولى، حارب لينين على جبهتين ، فدعا برولتاريا الشعوب الظالمة للتمرد والعصيان وشن حرب اهلية على حكوماتهم « القومية » ، بينما دعا الشعوب المظلومة للثورة على الشعوب الظالمة ، وطالب بوجوب مناصرتها . لقد « ميز لينين تمييزا دقيقا بين النزعة القومية للامم الظالمة والنزعة

٢ ـ المصدر السابق ص ـ ١٦٦ ـ

٣ ـ المصدر السابق ـ ص ١٦٦ ـ

٤ ـ لينين ـ التحالف بين العمال والفلاحين ـ دار الطبع والنشر باللغات الاجنبية ـ موسكو .

٥ ـ ولتر لاكور ـ الاتحاد السوفياتي والشرق الاوسط م. المكتب التجاري ـ بيروت ١٩٥٩ ص ـ ٢٠ ـ

القومية للامم المظلومة ، بين قومية الامم الاوروبية الاستعمارية ، وقومية الشعوب المكافحة ضد الاستعمار ، داعيا الى شجب الاولى وتأييد الثانية » (٦) . وقد توصل لينين الى نتائج هامة اهمها :

١ ـ اهمية حركة التحرر القومي في المستعمرات « التي تقوم بها غالبية سكان العالم ، والتي تهدف في الاصل الى التحرر القومي » هذه الحركة التي « سوف تتحول ضد الراسمالية والامبريالية ، وربما تلعب دورا ثوريا اكبر مما نتوقع » (٧) . ولقد كان يرى « ان الثورة الاشتراكية ليست مجرد انتصار البروليتاريا في كل بلد على برجوازية هذا البلد ، انما هي نضال جميع البلدان التابعة ضد الامبريالية العالمية » .

٢ ـ ان طرق الوصول للاشتراكية متعددة . وقد طلب من ابناء الشرق « ايجاد طريق جديدة للثورة » و « الانطلاق من الحقائق الملموسة لا من الموضوعات المجردة » . وهو ينتقد الاشتراكيين الذين يعتقدون ان للاشتراكية طريقا واحدة بشدة قائلا : « أن صغار البرجوازيين الاوروبيين لا يتصورون ان الثورات القادمة في بلدان الشرق ـ ذات كثافة من السكان اكبر بكثير ، وذات شروط اجتماعية اكثر تنوعا بكثير ـ سوف يكون لها حتما سمات خاصة اكثر مما كان للثورة الروسية بكثير » (٨) .

٣ ـ امكانية انتقال الاقطار المتخلفة الى الاشتراكية دون المرور بالمرحلة الراسمالية بمساعدة الاتحاد السوفياتي والبروليتاريا .

وحين قامت الثورة البلشفية في اكتوبر سنة ١٩١٧ قام لينين بمحاولات لتفجير الثورة في الشرق، وكان البيان الذي وجهته الثورة في العشرين من تشرين الثاني من العام ذاته « الى جميع العمال المسلمين في روسيا والشرق » هو اول مبادرات الثورة في هذا المجال . ولقد جاء هذا البيان شديد التفاؤل والحماسة . لنسمع هذه المقاطع منه :

« ايها المسلمون في روسيا ، وتاتار الفولغا والقرم والقرغيز والسارتز في سيبيريا وتركستان والترك والتاتار في مناطق القفقاس، والششن في جبال القفقاس الذين خرقت حرمة مساجدهم ومراكزهم وعاداتهم وايمانهم من قبل القياصرة الروس المضطهدين ... ان معتقداتكم وعاداتكم وثقافتكم القومية ومؤسساتكم اصبحت حرة ، ولن تخرق حرمتها بعد اليوم . نظموا حياتكم القومية بحرية ، ودون ضغط ، فهذا حقكم . واعلموا ان حقوقكم كحقوق جميع شعوب روسيا ، ستحميها قوة الثورة

٦ ـ الياس مرقص : المصدر السابق ص ـ ١٦٨ ـ

٧ ـ المصدر السابق : ص ـ ١٦٩ ـ

٨ ـ المصدر السابق : ص ـ ١٦٩ ـ

وهيئاتها ، ومجالس نواب عمالها وجنودها وفلاحيها . فآزروا هذه الثورة وحكومتها الشرعية .

ايها المسلمون في الشرق والفرس والترك والعرب والهندوس وجميع من عاث في ارضكم الطغاة الاوروبيون لمئات السنين عابثين بحريتكم ، فافقروكم وحرموكم املاككم ، نعلن ان جميع المعاهدات السرية التي عقدها القيصر المخلوع للاستيلاء على القسطنطينية ، والتي ثبتها كيرنسكي المخلوع ايضا هي لاغية . ان الجمهورية الروسية وحكومتها ومجلس مفوضي الشعب هم ضد الاستيلاء على الاراضي الاجنبية » (٩) .

خلال العام التالي ( ١٩١٨ ) انشيء اتحاد تحرير الشرق ، ونشرت بعض الدراسات التي تتعلق بالشرق عامة ، كما انشئت مفوضية الشؤون الاسلامية بتاريخ التاسع عشر من يناير من السنة ذاتها . « وعقد في نوفمبر ١٩١٨ مؤتمر اقليمي اسلامي في موسكو ، واوجد مكتبا مركزيا للمنظمات الشيوعية الاسلامية لنشر الدعاية في لغات الشعوب الاسلامية » (١٠) .

كان اهتمام موسكو متجها الى اوروبا خلال سنتي ١٩١٩ ـ ١٩٢٠ اكثر مما كان متجها الى الشرق ، ولكن الغليان الاوروبي تبدد دون ان يحقق اهدافه ، فازداد اهتمام موسكو بالشرق سنة ١٩٢٠ . وفي هذا العام بالذات انعقد مؤتمر باكو الشهير في الخامس عشر من آب . وكان المؤتمر يستهدف ـ فيما يستهدف ـ اثارة الثورة في المستعمرات ردا على تدخل الدول الاستعمارية ضد الثورة ، في محاولة لتدمير العالم الراسمالي . ولقد جاء هذا واضحا في الدعوة التي وجهتها الاممية الثالثة « الى الشعوب المستعبدة في ايران وارمينا وتركيا» والتي تقول:« فلم تنظم الاممية الثالثة الان مؤتمرا للعمال والفلاحين الارمن والاتراك والايرانيين ؟ وماذا ستقدم لهم ؟ وماذا تريد منهم ؟ ان عمال وفلاحي اوروبا وامريكا المناضلين ضد الراسمالية يدعونكم ، لانكم مثلهم تتألمون تحت نير العالم الراسمالي ، ولانكم مثلهم مجبرون على النضال ضد مستثمري العالم ، ولانكم بانضمامكم الى عمال وفلاحي اوروبا وامريكا ستزيدون من دمار العالم الراسمالي ، وتضمنون الحرية لجميع عمال وفلاحي العالم » (١١) .

ولقد خاطبت الدعوة « فلاحي سوريا والبلاد العربية » (١٢) بهذه الفقرة :

« يا فلاحي سوريا والبلاد العربية لقد وعدكم الفرنسيون والانكليز بالاستقلال ، ولكن جيوشهم احتلت اراضيكم فارضة قوانينها ، وانتم

٩ ـ ايفار سبكتور ـ اربعون عاما صدر سنة ١٩٦١ ص ـ ٢٧ و ٢٨ ـ

١٠ ـ المصدر السابق ص ـ ٣٠ ـ

١١ ـ المصدر السابق ص ـ ٣٧ ـ

١٢ ـ المصدر السابق ـ ص ٣٨ ـ

بعد ان تحررتم من السلطان التركي وحكومته ، اصبحتم عبيدا لحكومات باريس ولندن . والفرق بين حكمها وحكم السلطان انهـا تشدد عليكم الخناق اكثر فاكثر ، وانتم تعلمون ذلك . لقد ثار فلاحو بلاد مـا بين النهرين علـى الجيش البريطاني المحتل ، ومـا زالـت الصحف البريطانية تذكر خسائره في المعارك القائمة بينه وبين الثائرين بالقرب من بغداد » .

حضر المؤتمر ـ علـى مـا تذكر المصادر الشيوعية ـ الف وثمانـي ماية وواحد وتسعون مندوبا ثلثاهم تقريبا شيوعيون ( ١٢٧٣ ) . وكـان من بين هؤلاء ٢٣٥ تركيـا ، و ١٩٢ ايرانيا ، و ١٥٧ ارمنيا و ٨ اكـراد و ٢ عرب .

وقد وجه المؤتمر ندائين احدهما الى شعوب الشرق ، والاخر الى عمال اوروبا وامريكا واليابـان ، وكانت الدعوة للجهاد المقدس ضد الاستعمار اهم مقرراته .

اثارت الوضعية الجديدة محاورات حول الثورة ، وامكان تخطي المرحلـة الراسمالية فـي انتقال البلـدان المتخلفة الى الاشتراكية . وقد طرح هذا الموضوع فـي المؤتمر الثانـي للكومنترن سنة ١٩٢٠ ، فاتخذ قرار بمبادرة لينين ينص علـى ان الدول المتخلفة ، تستطيع ان تتجاوز المرحلة الراسمالية ، وتنتقل الى الاشتراكية بدعم الاتحاد السوفياتي والبرولتاريا الثورية في العالم . ومع هذا فـان « القرار » لم يؤد الـى تحول فـي وجهات النظر ، ولم تنتج عنه قناعة تامة ـ على مـا يبدو ـ بامكانيـة حدوث مثل هذا التحول .

وكان لينين ـ كما ذكرنا ـ يـرى ضرورة قيام تحالف بيـن الثـورة السوفياتية خاصـة والحركـة الشيوعية عامة ، وبيـن حركـات التحرر الوطني في الشرق ، ولكنـه قال : « يجب ان نساعـد حركات التحرر البرجوازية ، ولكن بشرط الا تقاوم وتحارب جهودنا مـن اجـل تنظيم وتثقيف فئـة الفلاحيـن والجماهير المستثمرة ، وبث الروح الثورية فيها » (١٣) فالى اي حـد كانت « الحركـات البرجوازيـة » مستعدة للتجاوب مـع مثل هـذا الشرط ؟ هذا ما سنجيب عليه بعـد قليل .

ولقد ساهم عدد من الشيوعيين الآسيويين فـي الحوار الذي دار حول « الثورة في الشرق » وكانـت لبعضهم آراء هامـة ، نذكر منهـم سلطان عليف من قازان ، ومصطفى صبحي من تركيا ، وحيـدر خـان آمواغلو من ايران وم. روي من الهند وغيرهم . كـان هؤلاء وخاصـة عالييف وروي وزادة يعتقدون بـان في الشرق طاقات ثورية هائلة ، وان « مستقبل الشيوعية في الشرق » . غير ان هؤلاء الذيـن اتفقوا فـي الاعتقاد بما ذكرنا كانـوا مختلفين ، وكانت آراؤهم تتغير ما بين المـدة

١٣ ـ ولترلاكور : المصدر السابق ص ٥٨

والاخرى . لقد اقترح ساليف ــ وهو من المهم ــ مثلا انشاء كومنترن آسيوي ، تكون قازان مركزه . وكان يرى ان الصراع الطبقي منعدم في الشرق ، وكان متفقا مع القوميين الاتراك الذين قال ممثل منهم في مؤتمر باكو : « انه ليس في تركيا من ملاكين اقطاعيين ، كما ليس فيها بورجوازية قوية » (١٤) . لقد كانت شيوعية ساليف مزيجا من « الافكار الماركسية ومن المطامح القومية » (١٥) . وعلى الرغم من ذلك فقد عمل معاونا لستالين في مفوضية القوميات حتى سنة ١٩٢٣ ، حين اتهم بالعمل مع عصابات البصماتش المعادية لحكم الثورة في تركستان . وكان سلطان زادة غير مؤمن بجدوى التعاون مع الحركة القومية . وقد قدم تقريرا الى اللجنة التنفيذية للكومنترن سنة ١٩٢٠ قال فيه : « ان التجربة قد اقامت الدليل على ان الحركة القومية في الشرق ( او على الاقل بعض الثوريين الوطنيين) خليقة بأن تنحاز سريعا الى المعسكر الغربي الراسمالي » (١٦) . وقد دعا في كتابه « بحث في الثورة في الشرق » الى التحالف مع البرجوازية الدنيا تحالفا وثيقا ، او الانصهار معها . واتهم زادة ايضا بالانحراف الطائفي وخيانة الشيوعية . والجدير بالذكر ان مصير هؤلاء جميعا كان فاجعا ، ذلك ان بعضهم صفي في الاتحاد السوفياتي ، بينما قتل اخرون في بلادهم ، ومن هؤلاء مصطفى صبحي وخمسة عشر من رفاقه ، الذين قتلوا في يناير سنة ١٩٢١ على يد احد الشرطة الاتراك ، وعلى الرغم من ذلك فان معاهدة الصداقة بين الاتحاد السوفياتي وتركيا وقعت في آذار ، ولم ينشر خبر مقتلهم في الصحف السوفياتية، الا بعد زمن مع انهم قتلوا في قرية طرابزون القريبة من الحدود الروسية .

قامت اثناء الاعوام ( ١٩١٩ ــ ١٩٢١ ) حركات في تركيا وايران وافغانستان ، حظيت كلها باهتمام السوفيات ، ونالت تاييدهم ، وكانت حركة مصطفى كمال اتاتورك اكثر هذه الحركات استحقاقا للتاييد ، حتى ان رئيس تحرير « ازفستيا » كتب بعد قيام الحركة مباشرة « انها اول ثورة سوفياتية في الشرق » . وعلى الرغم من النقاش الذي دار حول هذه الحركات ، واختلاف وجهات النظر فيها ، فقد اعتبر ستالين سنة ١٩٢١ تركيا « اكثر البلدان الاسلامية تطورا سياسيا »، وكان يرى انها « قد رفعت راية الثورة ، وجمعت حولها شعوب الشرق ضد الامبريالية » (١٧) وقد

١٤ ــ المصدر السابق : ص ــ ٤٢ ــ

١٥ ــ الياس مرقص : دراسات عربية ــ العدد السادس ــ السنة الاولى مسالة القوميات في الاتحاد السوفياتي ص ــ ٣٠ ــ

١٦ ــ ولتر لاكور : المصدر السابق ص ــ ٣٨

١٧ ــ ايفار سبكتور : المصدر السابق ص ــ ٤٧ ــ

عقدت اتفاقات مع هـــذه البلدان ، وكانت الآراء تتأرجح حولها ، ولكنها كانت تميل دائما الـــى الاتهام وعدم الثقة .

ولقد كان لهذا الاضطراب عـــدة عوامل ، يمكن ان نوجزها فيما يلي :

١ ــ العامل العقائـدي ، وهـــو اعتبار البروليتاريا حاملة لواء الثورة الاشتراكية ، وعدم الاقتناع التـــام بأهلية الفلاحيـــن لتحقيق الثـورة الاشتراكية . ويبدو أن جهود لينين، ومقالات غيـــره مـــن الشيوعيين الآسيويين والاوروبيين لم تكن كافية لايجاد القناعة التامة بحتمية تحالف الفلاحين المظلومين في الشرق مـــع الثورة السوفياتية . ومع هذا فقـد كان هنالـــك حديث دائـم عـــن « التحالف » ، الا ان هـذا الحديث ظل عرضة للالتباس ، لانـــه كـــان يخلط دائمـــا بيـــن التحالف مـــع الفلاحين ، والتحالف مع البرجوازية الوطنية ، او الحركـــات الاستقلالية المعادية للامبريالية . ومن هنا كـــان الحكم دائما متأرجحا ، فهو تارة مع هذا التحالف ، وطورا ضـده .

ولقد تواترت الاحداث ، فانقلـب اتاتورك علـــى السوفيات ، وانقلب بعده تشان كـــاي تشك علـــى الشيوعيين الصينيين ، ولقد كـان انقلاب الاخير هزة ادت الـــى اعادة النظر في كل الاساليب المتبعة سابقا. وقد اتخذت مقررات هامة في المؤتمر السادس للكومنترن سنـــة ١٩٢٨ .

وكانت الخطة الجديدة تقوم علـــى ما يلي :

١ ــ في حالة وجـود استعمار توحد كل الطبقات في جبهة واحدة ما عدا العملاء المباشرين ، من اجـل تحقيق الاستقلال .

٢ ــ عندما يحقق الاستقلال يقوم الشيوعيون بحملات توعية العمـال والفلاحين وتوحيدهم لتحقيق الثورة الاجتماعية .

٣ ــ بعد هذا يستولي الشيوعيون على الحكم .

ولقد راى مؤتمر الكومنترن ــ على الرغم من اختلاف وجهات النظر ــ ان التعاون مع الحركة الوطنية في الشرق لم يكن خطأ من ناحية مبدئية، ولكن الخطأ كان في تنفيذه . واصر قادة الشيوعية الدولية على ضرورة التعاون مع الحركات الوطنية فـــي الشرق ولا سيما مع جناحها الايسر. ومع هذا ، فان الحركات الشيوعية، كانت تنظر بشك متزايد الى الحركات الوطنية منذ هذا التاريخ ، حتى سنة ١٩٣٥ . وكان ستالين يعتبرها الجناح المعتدل للفاشية . وقد برز موضوع الجبهة الوطنية من جديد خلال السنوات ١٩٣٥ ــ ١٩٤٤ ، وهي فترة صعود الخطر النازي والحرب، ولكن الهجوم على الحركات الوطنية عاد من جديد بعد الحرب ، ولـــم يتوقف الا بعد سنة ١٩٥٤ . كان ستالين « قليل الثقة بحركات التحرر الاسيوية ، وخاصة بعـــد ان قلب

تشانغ كاي تشك للشيوعيين ظهر المجن عام ١٩٢٧ » (١٨) . ومع هذا فقد كان يعتبر حركـــات التحرر الوطني في الشرق اكثر تقدمية من الحركات البرجوازية في الغرب .

٢ ــ العامل السياسي، فلقد كانت الثورة السوفياتية تمر بظروف حرجة، وحين قضت على حركات التمرد الداخية: ومحاولات الغزو الخارجي ، كـانت تواجه مشاكل البناء . الا ان الحصار الذي فرضه العالم الاستعماري على الثورة ، والصراعات الداخلية الناتجة عن الخلافات المبدئية حول مشاكل السياسة الداخلية والخارجية ، او الناتجة عن الطموح الى السلطة ، ادت الى اندفاعات وترددات في السياسة السوفياتية . ثم ومنذ سنة ١٩٢٨، أي عندما تحققت السيطرة الكاملة لستالين على السلطة ، ادت الى عقم وجمود نظريا وعمليا . ذلك انه اخذ يرى الامور من زاوية واحدة ، ويطلق احكامه من خلال هـــذه الرؤية الناقصة ، فتأتي اقرب الى التعميمات والتجريدات ، حتى ان الشيوعيين الصينيين لم يروا بدا من ان يذكروا ــ وهم يدافعون عنه ــ بانـــه حول الديالكتيك الى ضرب من المثالية .

٣ ــ العامل الحركي : لم تكـــن الاحـــزاب الشيوعية موجودة في الشرق سنة ١٩١٧ ، ولقد اخـذت تتكون منذ سنة ١٩٢٠، وكان تكوينها ارتجاليا ، ووليد الحاجة ، مما جعلها تحمل بذور ضعفها. ولم يكن الاتحاد السوفياتي يملك الاجهزة المختصة بشؤون الشرق ، والتي تستطيع فهمه وتحليله . وقد انشأت سنة ١٩٢٢ جامعة كادحي الشرق ، كما انشئت في العام ذاته الجمعية العلمية للدراسات الشرقية التي اصدرت مجلة الشرق الجديد . ولكن جدة هذه الهيئات في المرحلة الاولى ، وموجات التصفية والتطهير التي اصابتها فيما بعد ، جعلتها قليلة الفائدة . لقد كان الاتحاد السوفياتي يجهل الشرق، ولم يستطع خبراؤه اليهود والاجانب ان يعطوا صورة صحيحة عنه ، اما الحزبيون المحليون ، فلـم يكونوا ــ على الاغلب ــ على درجة من الوعي و « الاستقلال » ، تسمح لهم باتخاذ موقف مستقل كما فعل روي وعاليف وزاده ، خاصة وان العهد الستاليني لم يكن مستعدا للتسامح مع مثـل هذه الحالات .

## ٢ ــ التركيب السياسي الاجتماعي للمجتمع العربي

كان الوطن العربي عنـــد نهاية الحرب العالمية الاولى ، خاضعا من ناحية سياسية للاستعمار الانليزي ــ الفرنسي ، ما عدا اجزاء مثل السعودية واليمن ، التي كانت ترزح تحت نير حكم اقطاعي قبلي اقرب للقرون الوسطى . وكان حكام بعض هذه الاجزاء التي لم تدخلها الجيوش المحتلة متفاهمين مع الاستعمار . اما من الناحية الاجتماعية ، فلقد كانت

---

١٨ ــ ولتر لاكور : المصدر السابـــق ص ــ ٨٦ ــ

« الوجاهة » للاقطاعيين والبرجوازية التجارية . وكـانت بعض فئات البرجوازية التجارية والاقطاعيين بقيادة المثقفين من ابناء «الوجاهات» قد تمردت على الحكم العثماني ، في سبيل تحقيق الاستقلال والوحدة، ولكنها وقعت في مصيدة الاستعمار البريطاني ـ الفرنسي . والواقع ان الفلاحين لم يشتركوا اشتراكا فعالا في الثورة العربية ( ١٩١٦ ) ، وان كانت عناصر منهم قد ايدتها . وقد جاء الاحتلال البريطاني ـ الفرنسي، ليزيد من نفوذ الاقطاع والبرجوازية التجارية ، وليجعل منهما اداته في القمع والارهاب . الا ان البرجوازية التجارية والاقطاع ما كانا ليرضيا بحكم استعماري احتلالي ، وكانا يسعيان ، وتحت ضغط الانفجارات الشعبية خاصة ، لتحقيق انواع من « الاستقلال المقيد » ، يزيد من فرص استغلالهما وتسلطهما . ولقد شهد الوطن العربي « ثورات »عديدة في كل انحاء الوطن العربي ، كان الفلاحون جيشها العرمرم ، بينما كانت قياداتها العليا من ابناء البرجوازية التجارية والاقطاع ، وقياداتها العاملة من البرجوازية الوسطى والدنيا والصغيرة . ولقد ارتبطت مصالح البرجوازية التجارية والاقطاع بمصالح المستعمرين، وكانت التجزئة ثمرة هذا اللقاء. ولقد حققت بعض الاقطار العربية نوعا من الاستقلال ، ولكن القوى الاجتماعية المسيطرة ظلت هي هي . غير ان حصيلة وجود الاحتلال ، وتحول الاقتصاديات العربية من أقتصاديات معيشة الى اقتصاديات سوق ، ادى الى حدوث تطورات في البرجوازية التجارية ، فاخذت تميل الى المشاركة في الاعمال المصرفية ، وانشاء الشركات الوطنية ، والى المبادرة بانشاء الصناعات الاستهلاكية . وقد ظهر مثل هذا التطور في مصر اولا ثم في سوريا اكثر مما ظهر في بقية الاقطار العربية . وكان مثل هذا التطور يقود الى « صدام » بين البرجوازية والاستعمار ، ولكنه لم يكن صداما حادا ، ذلك ان قيام الاتحاد السوفياتي من جهة ، وتطور الاقتصاد الراسمالي من جهة ثانية، فتحا الباب لاستيعاب مثل هذا التطور . هذا بالاضافة الى ان البرجوازية التجارية والبرجوازية « الصناعية » التي تفرعت عنها كانتا ترتبطان مع الاقطاع بعلاقة نسب ومصير ، فلم يكن ممكنا والحالة هذه ان تنحاز البرجوازية الى الشعب ... الى الفلاحين والعمال المكافحين من اجل الاستقلال والوحدة . وقد ظل الامر هكذا حتى بدات البرجوازية الصغيرة تمارس نشاطها خلال الحرب الثانية وبعدها ، هذا النشاط الذي ادى الى حالة عدم الاستقرار التي يشهدها الوطن العربي منذ سنة ١٩٤٨ .

لقد انهارت قيادة البرجوازية التجارية والاقطاع في النضال ضد الاستعمار ، ولكنها ظلت عمليا

مسيطرة اجتماعيا في كل اقطار الوطن العربي حتى منتصف الخمسينات ، عندما بدات تسقط في مصر ثم في سوريا .

وكان اختلاف المستعمرين من جهة ( انجليز في العراق ومصر وفلسطين، وامارات الخليج ، وفرنسيون في المغرب العربي الكبير وسوريا ولبنان، واسبان في المغرب الاقصى، وايطاليون في ليبيا الخ.. ) يجعل الكفاح من اجل الوحدة ، كفاحا ضد الامبريالية من جهة ، وضد الاقطاع والقبلية من جهة اخرى .

كان الفلاحون اكثرية الشعب التي تتجاوز الثمانين بالمائة منه في كل مكان من الوطن العربي ، نتيجة حرص الاستعمار على بقاء البلدان المستعمرة بلدانا زراعية ، ومصدرة للمواد الخام ، وعجز البرجوازية التجارية قريبة الاقطاع وحليفته ، عن التحول الى برجوازية صناعية . ولقد جعل هذا الوضع العمال « اقلية ». وكانت هذه الاقلية على الاغلب من اصول فلاحية ، وذات علاقات دائمة بالريف، او كانت منحدرة من اصحاب الحرف الذين اضطروا بعد دخول قوات الاحتلال ، وبسبب منافسة البضاعة الاوروبية الى العمل في «الورش» الجديدة . وكان « الفنيون » منهم ارمن او يهود او يونان وايطاليون وفرنسيون في كثير من الاحيان . وبينما كانت تسوء اوضاع الفلاح العربي ، كانت اوضاع هؤلاء في تحسن ، حتى ان كثيرا من الفلاحين كانوا يهجرون الريف الى المدينة .

وكان الاستعمار السكاني هو اخطر ما يتعرض له هذا الوطن . ذلك انه امتد على جبهات طويلة عريضة، فهو غزو صهيوني في فلسطين وفرنسي في الجزائر والمغرب وتونس ـ قبل عام ١٩٦٢ ، وايطالي في ليبيا ـ قبل الحرب العالمية الثانية ـ وايراني في عربستان والخليج العربي ، وتركي في الاسكندرون . كان هذا الاستعمار وما زال في فلسطين وعربستان والخليج العربي واسكندرونة يحمل طابع التحدي الكبير ، التحدي المصيري . فهو لا ينزع اجزاء من جسم الوطن العربي فقط ، بل يقود الى تحويل ابناء شعبنا في الاجزاء التي تتعرض لمثل هذا الغزو الى مخلوقات من درجة ثانوية ، يحرمون من حقوقهم السياسية ، ومن حقوقهم المدنية ايضا . انهم يحرمون من ارضهم ولغتهم وحقهم في الحياة . وما زال هذا الغزو مصدر تهديد للاقطار التي تجاوره ، وما زال هذا الخطر يتجسم في تحديين كبيرين اولهما الخطر الصهيوني من الغرب، وثانيهما الخطر الايراني من الشرق ، عبر جبهة تمتد من الكويت الى مسقط ، بعد ان تقلص في المغرب بانتصار ثورة الجزائر .

وكان هذا الغزو ـ وما زال ـ ركيزة للاستعمار اولا ، وللامبريالية فيما بعد .

ومنذ اواخر القرن الماضي وراس

المال الاجنبي يهيمن هيمنة كاملةعلى الوطن العربي ، وما زالت هذه حالة اكثر اجزائه ، وان تكن هنالك بعض الاقطار التي تسير على طريق التحرر مثل مصر والجزائر وسورية .

### ٣ ــ التكوين الاجتماعي للاحزاب الشيوعية العربية

ان الاحزاب الشيوعية تتكون كما يلي :

اولا : ابناء الاقليات المنصرية او الدينية ، وعلى راس هؤلاء اليهود والارمن والاشوريون والفرنسيون وغيرهم .

ثانيا : ابناء البرجوازية الدنيا والصغيرة .

ثالثا : قليل من العمال وعدد اقل من الفلاحين .

ومن الجدير بالذكر ان الذين انشأوا الاحزاب الشيوعية في الوطن العربي هم من اليهود والارمن والفرنسيين والمهاجرين الروس ..

### ٤ ــ ايديولوجية الحركة العربية

قادت البرجوازية التجارية كبيرة ووسطى الحركة العربية منذ اواخر القرن التاسع عشر حتى نهايةالحرب العالمية الثانية . ولا حاجة للقول بان هذه القيادة المحافظة ، الخانعة،كانت تمثل ايديولوجية غيبية ، ومعادية للثورة الاجتماعية ، وبالتالي فقد كانت تدعو لاصلاح غائم ، وتحارب الاشتراكية والشيوعية. وحين قفزت البرجوازية الصغيرة الى القيادة في بعض الاقطار العربية ، شنتحملات قاسية ضد الشيوعية ، نظريا وعمليا،مع انها كانت ضد الاستعمار، وتدعو « للاشتراكية » . وقد ظل هذا موقفها الى عهد قريب ، حيث طرات تغيرات يجب أن تاخذ بعين الاعتبار ، مع انها ليست تغيرات جذرية حتى الان * .

## ــ ٢ ــ

في ضوء ما تقدم نستطيع ف هم تجارب الاحزاب الشيوعية في الوطن العربي ، لاننا بدون ذلك سنكون مثل من يبحث عن قوة الشجرةفي اوراقها لا في جذورها . وسيكون سهلا بعد الاحاطة بالظروف المذكورة،ان نعرف لماذا كانت الاحزاب الشيوعية في الوطن العربي احزابا قطرية معزولة متقلبة اصلاحية . ولقد تمثل هذا كله في عدد من الظواهر التي يمكن ان توجز فيما يلي : ١ ــ التبعية الفكرية والسياسية. ٢ ــ الاصلاحية الفكرية والسياسية . ٣ ــ الكوزموبوليتية .

### ١ ــ التبعية الفكرية والسياسية

بدات الاحزاب الشيوعية تنمو وتترعرع مع نمو الستالينية وترعرعها ( ١٩٢٢ ــ ١٩٢٨ ) ، وقد انشاها خبراء الكومنترن من اليهود وغيرهم الذين اعدم بعضهم ستالين ونفى بعضهم الاخر فيما بعد بتهمة الصهيونية او الانحراف ، وضمت

* ــ سنتناول في دراسة قادمة موقف الحركة العربية من الشيوعية محلية وعالمية .

بعض ابناء الاقليات كالارمن واليهود واليونان والفرنسيين . وظل خبراء الكومنترن يتلقون التعليمات من موسكو . وقد انشأ هؤلاء جيلا جديدا من القادة المحليين القليلي الوعي والثقافة ، فنهج الاخرون نهج الاولين . ولما كان هؤلاء قليلي الوعي والثقافة ، وكانت الستالينية في فتوتها فقد ظلوا تابعين . ذلك ان الستالينية هي التبعية ، تبعية الاحزاب خارج الاتحاد السوفياتي للحزب الشيوعي السوفياتي ، وتبعية الحزب الشيوعي السوفياتي للقائد الموجه ستالين . الستالينية تنفي حرية الفكر ، وبالتالي تنفي حرية الممارسة . ولهذا فقد اصبحت الاحزاب الشيوعية مجرد اجهزة منفذة للتعليمات . واذا ما تابعنا تعرجات السياسة السوفياتية خلال العقود الخمسية الماضية ( ١٩١٧ ـ ١٩٦٥ ) عرفنا تعرجات سياسة الاحزاب الشيوعية في الوطن العربي .

ويمكن ان نحدد المراحل التي مرت بها السياسة الخارجية السوفياتية ، وهي :

١) ١٩١٧ ـ ١٩٢٧ ، مرحلة الدعوة لدعم حركة التحرر الوطني في الشرق ، وان كانت هنالك خلافات حول هذا الامر . وكانت الاحزاب الشيوعية في هذه الفترة في مرحلة النشوء في بعض الاقطار ، بينما لم تكن موجودة في اقطار اخرى .

٢) ١٩٢٨ ـ ١٩٣٤ ، مرحلة التأكيد على ضرورة التحالف نظريا ، وان كان الموقف عمليا يتلخص في مهاجمة القيادات البرجوازية كحزب الوفد في مصر . وقد ذكرنا المنهج الذي قرر الكومنترن انتهاجه في اجتماعات سنة ١٩٢٨ ، في بلدان الشرق عامة . وان كان هذا المنهج قد قاد الى التفريق بين بلد واخر حسب ظروفه الاجماعية والسياسية ( وجود طبقة عاملة ، وجود استعمار الخ.. ) .

٣) ١٩٣٥ ـ ١٩٤٥ ، مرحلة الدعوة لقيام جبهات وطنية لمحاربة الفاشية والنازية . وقد خفت حدة هذه الدعوة او تلاشت منذ توقيع معاهدة عدم الاعداء بين الاتحاد السوفياتي والمانيا حتى وقوع الاعتداء الالماني على الاتحاد السوفياتي ( ١٩٣٩ ـ ١٩٤١ ) .

٤) ١٩٤٦ ـ ١٩٥٤ ، مرحلة الدعوة لفضح الاحزاب والفئات الاشتراكية المعتدلة ، والعمل على مقاومة خطر حرب عالمية جديدة ( فضح المشاريع الاستعمارية ، توقيع نداءات السلام الخ.. ) .

٥) ١٩٥٥ ـ ١٩٦٥ ، مرحلة تأييد سياسة الحياد الايجابي ، ودعم دول العالم الثالث سياسيا واقتصاديا .

ونستطيع ان نقول : ان هذه المراحل ذاتها هي مراحل تطور سياسات الاحزاب الشيوعية في الوطن العربي بشكل عام ، وان كانت هنالك خلافات بين حزب شيوعي واخر من ناحية

تفصيلية ، ومن حيث التركيز على شعار دون الاخر ، او اكثر من الاخر .

لقد كانت الاحزاب الشيوعية العربية تتجه الوجهة التي يتجهها الاتحاد السوفياتي ، فهي تارة مع الوحدة العربية ، وطورا ضدها،وهي حينا مع الجبهة الوطنية واحيانا ضدها، وهي في فترة ضد«الحياد»، وفي فترة أخرى مؤيدة له ... الخ. وكان هذا كله يتم دون ان تقدم التبريرات لمثل هذه التحولات ، مع ان انعطافات كهذه كانت تقتضيتقديم ايضاحات نفاذة حول التطورات السياسية والاقتصادية التي تمت، وما اقتضته هذه التطوراتمن تغيير في سياسات هذه الاحزاب (١٩) .

وكان هنالكعاملانيقودان الىمثل هذا التناقض و « التخبط » :

اولهما : ان الاتحاد السوفياتي لم يكن مؤهلا لاصدار احكام تتعلق بهذه المناطق من العالم للاسباب التي ذكرناها ، ولان ستالين انصرافا منه لبناء الاشتراكية في بلد واحد ، ونتيجة لعدم تقديره لدور حركة التحرر الوطني تمام التقدير ، كان لا يعطي المسألة ما تستحق من جهة ، ويخضعها لمحاكمات نظرية غريبة عن روح الماركسية اللينينية ، ولمقتضيات دبلوماسية محضة من جهة ثانية .

ثانيهما : ان الاحزاب الشيوعية نتيجة ضعفها وعزلتها عن جماهير حركة التحرر الوطني ، وبسبب وقوفها خارج تيار هذه الحركة، واعتمادها على وجهات نظر«الاحزاب الشيوعية الام» ، كانت غير قادرة على تحديد استراتيجية واضحة ، منبثقة من « الواقع الموضوعي » . ولعدم وجود هذه الاستراتيجية ،لم تكن قادرة على التفريق بين ما هو «استراتيجي» ، وما هو «تاكتيكي». وهكذا اختلط المبدأ بالشعار ، والجوهري بالمرحلي ، فاعطيت الشعارات اهمية المبادىء، والمبادىء اهمية الشعارات . وكانت الاستراتيجية عرضة للتغيير بسهولة تغيير التكتيك .

ولا نريد هنا ان نعدد تناقضات الاحزاب الشيوعية ، ونذكر تفاصيل هذه التناقضات ، لان هذا موضح في عدد من المراجع (٢٠) ، ولانه معروف ، وواضح لكل من يتابع التطورات السياسية متابعة عادية.

ولقد روى لي بعض الموثوق بهم من الشيوعيين السابقين ان تعليقا من اذاعة موسكو مثلا كان كافيا لنقض قرارات اتخذتها قياداتهم .

وهكذا نرى ان عدم وجود « شخصيات مستقلة » للاحزاب الشيوعية في بلادنا ، قادها الى التخبطات المعروفة ، وهي تخبطات

١٩ ـ يراجع بهذا الشان كتاب الياس مرقص : تاريخ الاحزاب الشيوعية في الوطن العربي ، وثائق كتاب الحكم دروزة : الشيوعية المحلية ومعركة العرب القومية

٢٠ ـ المرجعان السابقان ، والثورة والجماهير للمؤلف ـ اصدار دار الطليعة ـ بيروت .

خطرة جدا ، وافقدها القدرة على الاستيعاب والمبـــادرة والتوجيه والقيادة .

**٢ ـ الاصلاحية الفكرية والسياسية**

الماركسيـــة ـ اللينينية هـي ايديولوجيا الطبقة العاملة ، وهـي ايديولوجيا الثورة الاشتراكية. ومنذ كانت الماركسية ، والماركسيون ضد « الاصلاح » ، ضـــد النزعات الاصلاحية . وهذا لا يعني انها ضد التكتيك والتحالفات المؤقتة ، فهي مع التكتيك والتحالفات المؤقتة ، شريطة ان ينطلقا من استراتيجية واضحة ثورية . ودون هـــذه الاستراتيجية يصبح التكتيك اما مغامرة ، واما «اصلاحية» . ولقد اختارت الاحزاب الشيوعية « الاصلاحية » ، اختارت ان تكون دون « استراتيجية ثورية واضحة » . هذا مـــن الناحية الفكرية . اما من الناحية العملية فلقد كانت خارج صفوف الجماهير دائما. شجبت مثلا احداث سنة ١٩٢٩ في فلسطين ، واسمتها مذابح ، مع ان هذه الاحداث كانت نتاج تحرك شعبي ضد الصهيونية . وشجبت سنة ١٩٤١ حركة رشيد عالي الكيلاني ضد الانجليز ، او لنقل ايدت الانجليز ضد حكومة رشيد عالي الكيلاني ، مع ان الحركة كانت ضد الاستعمار البريطاني ، وكانت تستقطب مشاعر جماهير الشعب العربي في كل مكان، وشجبت سنـــة ١٩٤٧ ـ ١٩٤٨ الحرب العربية ـ الصهيونية ، مـع انها حرب ضد استعمار «اسكاني»، وضد الامبريالية العالمية ، وشجبت سنة ١٩٥٤ ثورة الجزائر التي كانت تمثل تحركا شعبيا فلاحيا ضد ابشع انـــواع الاستعمار الاستكانـــي والامبريالية . *

وفي المجال الاجتماعي ، كـانت الاحزاب الشيوعية ترفع شعارات البرجوازية التجارية . ففي سنـة ١٩٤٣ قال خالد بكداش في خطاب القاه في مهرجان انتخـابي : « ان القضية ليست في نظرنا اقامة نظام اشتراكي في لبنان او في سوريا ، وان كل ما نطلبه وما سيناضل لاجله نوابنا القلائل في المجلسين النيابيين في سوريا ولبنان ، هو ادخال بعض الاصلاحات الديمقراطية التي يتحدث عنها الجميع ، والجميع متفقون على ضرورتها ... وتؤكـــد لاصحاب الاراضي والملاكين اننا لا نطالب ولن نطلب في البرلمان مصادرة املاكهم واراضيهم ، بل نريد على العكس مساعدتهم بطلب انشاء مشـــاريع واسعة للـــري وتسهيل استيـراد الاسمدة واستعمال الالة الحديثة ، وكل ما نطلبه مقابل ذلـــك الرفق بالفلاح ، واخراجه من حالة البؤس والجهل ، ونشر العلم والصحة فـي القرية . وتؤكد للتجار الكبار اننـا لن نطلب مصادرة تجارتهم مهما كانت كبيرة ، بل نطلب تسهيل المبادلات التجارية مع جميع الاقطار العربية المجاورة . وكل ما نطلبه وسنطلبه

---

* يجب ان يكون واضحا ان لنـــا موقفنا الخاص في كل هذه الاحداث .

هو وضع حد للربح غير المشروع الاتي عن طريق الاحتكار . هذه هي مطالبنا الاقتصادية، او «الاجتماعية» اذا صح التعبير ، وهي ديمقراطية معتدلة جدا . » (٢١) . وفي سنة ١٩٥٤ دخل الحزب الشيوعي السوري انتخابات سوريا ، بما اسماه برنامج الحد الادنى رفع فيه شعار الاصلاح الزراعي ، ولكنه طالب ـ الى حين تحقيق الاصلاح الزراعي الشامل المنشود ـ « بالمباشرة فورا باتخاذ تدابير للتخفيف من عبء الاوضاع القاسية التي تعانيها جماهير الفلاحين الفقراء ، وذلك بتحسين شروط المحاصة ، والغاء الاتاوات الاقطاعية الظالمة ، ومنع طرد الفلاحين من الارض ، وتحسين شروط العمل للعمال الزراعيين برفع اجورهم ، ومنحهم الحقوق الممنوحة لعمال الصناعة في قانون العمل » (٢٢) . ورفعت الاحزاب الشيوعية سنة ١٩٥٨ بعد ثورة الرابع عشر من تموز شعار الاتحاد مقابل شعار الوحدة ، مع ان معركة الوحدة هي المعركة الحاسمة ضد الاستعمار ، ودافعوا عن « الراسمالية الوطنية » المحلية مع انها حليفة الاستعمار ، وعدوة الوحدة والتقدم (٢٣) . ولقد لاحظنا مثل هذا الدفاع عن « الراسمالية الوطنية » بعد صدور قرارات التاميم في الجمهورية العربية المتحدة سنة ١٩٦١ ، وبعد الانفصال .

وتجلت هذه « الاصلاحية » بالاهتمام « بالبرلمانية » والمساهمة بها ، مساهمة فعالة ، حتى ان الانتخابات كانت احسن مناسبة لاحداث « ضجة » كبيرة حول شعارات الحزب المعتدلة . وقد تبنى الحزب الشيوعي في سوريا ولبنان بعد المؤتمر العشرين للحزب الشيوعي السوفياتي سنة ١٩٥٦ « الطريق البرلماني لتحقيق الاصلاحات الجذرية التي تحتاج اليها البلاد » (٢٤) .

وتجلت هذه « الاصلاحية » افضل ما تجلت في الاصرار على عدم وحدة الثورة السياسية والاجتماعية في البلدان المتخلفة، فهنالك ثورة سياسية اولا ، وهنالك ثورة اجتماعية ثانيا، ولا تتحقق الثانية حتى تنجز الاولى. ان مثل هذا الاصرار كان ناتجا عن عزلة الاحزاب الشيوعية عن حركة الجماهير ، وتمسكها بمحاكمات نظرية سابقة ، تنطبق على مراحل معينة من التاريخ، وعلى امكنة معينة. ولكن هذه « الموضوعة » عفى عليها الزمن ، وقد ادرك لينين هذه الحقيقة ، واثبت قيام الاتحاد السوفياتي وتحقيق الاشتراكية في الاجزاء الاسيوية منه تجاوزها نظريا

٢١ ـ الياس مرقص : تاريخ الاحزاب الشيوعية ص ـ ٢٢٠ ـ

٢٢ ـ الاحزاب السياسية في سوريا م . دار الرواد ١٩٥٤ ص ـ ٢٦٠ ـ

٢٣ ـ بيان الحزب الشيوعي العراقي ٣ ـ ٩ ـ ١٩٥٨

٢٤ ـ من « نحو آفاق جديدة » ، الصادر عن اللجنة المركزية للحزب الشيوعي في سوريا ولبنان ، ايار ١٩٦٥

وعمليا . وقد مضى على هذا نصف قرن من الزمن انتصرت خلاله الثورة الاشتراكية في الصين ، وكوريا ، وفيتنام الشمالية وكوبا . ومع هذا، ومع قيام الحركات الانقلابية ذات الابعاد السياسية والاجتماعية ، مثل حركة ٢٣ يوليو سنة ١٩٥٢ ، فان الاحزاب الشيوعية في الوطن العربي ظلت متمسكة « بموضوعة » ليست معاصرة .

ولعل هذه « الاصلاحية » تعود الى عاملين :

العامل الاول : طبيعة تركيب هذه الاحزاب ، كما اوضحناه سابقا ، وسيطرة البرجوازية الصغيرة على قياداتها . وهي برجوازية مدنية ، مهزوزة اجتماعيا ، بسبب حداثة تكوينها واختلاط فئاتها ، وانفصالها عن الطبقات العليا ( الاقطاع والبرجوازية التجارية ) وعن الجماهير عامة والفلاحية منها خاصة، ومهزوزة ثقافيا ، لانها بعيدة عن تراثها ، غير متعمقة بالثقافات الاوروبية ، متعددة الثقافات .

العامل الثاني : تأثرها ثقافيا بالشيوعيين الفرنسيين خاصة ، وهؤلاء شيوعيون « مدجنون »، تبنوا الطريق البرلماني الى الاشتراكية ، واصبحوا يرون موضوع التغيير الاجتماعي الجذري موضوع زمن لا موضوع نضال . اما تحليل التاريخ بالنسبة لهم فهو تحليل تاريخ سابق، انه تحليل التاريخ الاوروبي في القرون الماضية . اما تاريخ « العالم الثالث » في ضوء العلاقات العالمية الجديدة فهو ما لا يستحق الكثير من الاهتمام.

ولهذا ، وفي الوقت الذي كان فيه فلاحو الصين مثلا يتحركون بقيادة الحزب الشيوعي الصيني حركتهم الهائلة ، من اجل وحدة الصين وتحررها وبناء الاشتراكية فيها ، كان شيوعيونا يرفعون شعار «الرفق بالفلاح» .

**٣ ـ الكوزموبوليتية مقابل الاممية**

الماركسية ـ اللينينية ليست كوزموبوليتية ، مع انها تنطلق من الطبقة ، وتؤمن بوحدة عالمية مقبلة. ولقد ايد ماركس الثورات القومية التحررية ، ثورة ايرلندا مثلا ، وايد الوحدة الالمانية ، وسار لينين على الطريق عينها ، فايد حق تقرير المصير للامم ، ثم عمل على تأجيج حركة التحرر القومي في الشرق .

فماذا كان موقف الاحزاب الشيوعية العربية من القضية العربية؟

للاجابة على هذا السؤال لا بد من ذكر الحقائق التالية :

اولا : الاحزاب الشيوعية احزاب « قطرية » ، يعمل كل منها ضمن حدود قطر عربي ، ولا تجمع هذه الاحزاب رابطة ، ولا يضمها عمل مشترك ، ولم يحدث ان التقت في مؤتمر قبل سنة ١٩٦٤ ، وان كان لا بد ان نذكر هنا العلاقات الوثيقة بين الحزبين الشيوعيين في سوريا ولبنان (احيانا حزب واحد) ،ومؤتمر الاحزاب الشيوعية في سوريا ولبنان وفلسطين المنعقد سنة ١٩٣١ في

موسكو . وهي كاحزاب قطرية تولي اهتماماتها لشؤون السياسة المحلية، من خلال علاقة ذلك بالاتحاد السوفياتي .

ثانيا : وجود اجانب في قيادات هذه الاحزاب ( يهود ، ارمن ،اكراد، اشوريون ، فرنسيون وغيرهم ) جعلها تنظر الى قضية الوحدة نظرة عداء . ذلك ان وضع « الاجانب » هؤلاء لم يكن طبيعيا . فابناء البلاد منهم تعرضوا خلال عهود لانواع من الظلم ، وقاسوا الكثير من العنجهية العربية ، وان كانوا احسن وضعا من امثالهم في بلدان اخرى . واذا كان من المستحيل ان يصبح هؤلاء قوميين عربا ، فانه كان من المستحيل عليهم ان يرفعوا شعارات « قومياتهم » ، غير المعترف بها ، وغير « السوية ». فلم يكن من السهل على خالد بكداش مثلا ان يكون قوميا عربيا ، كما انه لم يكن من السهل أن يكون قوميا كرديا* « وهو قائد حزب شيوعي في قطر عربي ، والاكراد في سورية اقلية وليسوا « قومية » . اما الوافدون حديثا ، كالارمن في لبنان والفرنسيين في الجزائر ، فما كان من السهل عليهم ان يندمجوا في الشعب العربي ، ويستوعبوا تجربته . ولقد كان هؤلاء يسخرون من عقلية الفلاح العربي حتى داخل « احزابهم » .

ثالثا : كانت سياسة الكومنترن والاتحاد السوفياتي فيما بعد متقلبة في موضوع الوحدة العربية . وكان هذا التقلب يجر تقلب الاحزاب الشيوعية ، فهي احيانا تدعو للوحدة، واحيانا تعتبرها رجعية وفاشية ،الا ان قضية الوحدة لم تتحول الى ركيزة اساسية في « استراتيجية ثورية واضحة »،في اية مرحلة من المراحل، وبذلك لم تصبح من قضايا الاحزاب الشيوعية ، ومن تقاليدها النضالية.

رابعا : وكان موضوع الوحدة مفصولا دائما عن موضوع الكفاح ضد الاستعمار ، وكان التركيز ينصب دائما على مكافحة الاستعمار مع اختلاف في حدته ما بين فترة واخرى،

خامسا : كانت الاحزاب الشيوعية دائما ــ وحتى في الفترات التي كان يرفع شعار الوحدة فيها ــ تضع « القطر » مقابل الامة ، باسم امة سورية او مصرية او جزائرية تارة ، وباسم مصالح محلية طورا . لم تنظر الاحزاب الشيوعية يوما للقطر من خلال الامة ، كان القطر هو المنطلق دائما ... ولم يكن هنالك امة عربية عمليا ، وان كانت موجودة احيانا في الشعارات الثانوية .

تجلى هذا كله في اتخاذ موقف معاد من القضية الاساسية : وجود امة عربية واحدة ، كما تجلى في الموقف من وحدة سوريا ومصر سنة ١٩٥٨ ، ووحدة العراق مع الجمهورية العربية المتحدة . فلقد حاربوا وحدة العراق مع الجمهورية العربية المتحدة دفاعا عن الديمقراطية ، ومصالح البرجوازية الوطنية ، وخوفا من « الرونترية » والدكتاتورية ،وايدوا

* كان ــ كما سمعنا ــ كذلك داخل الحزب

الانفصال للاسباب ذاتها . وكانت النتيجة بمثرة المد الشعبي في الوطن العربي ، وتمزق الاحزاب الوطنية في المشرق العربي، وعلى راسها الاحزاب الشيوعية ،وسقوط العراق في يد الرجعية والدكتاتورية ، وانفصال وحدة سورية ومصر . وما زال العراق يعاني من آثار معركة ١٩٥٨ ـ ١٩٥٩ بين الشيوعيين والحركة العربية ، ومن مضاعفاتها الفظيعة ( قيام حكم قاسم ، معركة الاكراد ، موقف حركة الرابع عشر من رمضان من الشيوعيين ، انهيار حركة الرابع عشر من رمضان ، فشل حركة الثامن عشر من تشرين، وعودة اليمين للحكم، والشعب اشد ما يكون حقدا على الحزبية، ويأسا من التقدم)، والاحزاب الوطنية ( الشيوعيون ، البعث، حركة القوميين العرب اضعف ما تكون نسبيا ) . بعد كل هذا عاد الشيوعيون ليؤيدوا « الحركة العربية » ولكنهم في مصر « ناصريون » ، وفي سورية معادون لعبد الناصر ، وفي العراق مؤيدون لسياسة الجمهورية العربية المتحدة ، ولكنهم ليسوا «ناصريين»، وفي الاردن « ناصريون » وفي لبنان منقسمون بين ناصري ومعاد وحيادي. انهم ليسوا ضد الحركة العربية ، ولكنهم غير متفقين على سياسة واحدة ، وليست لهم استراتيجية محددة في هذا المجال .

كان الحديث عن ضرورة الوحدة العربية يعني فاشية ، ويقود فورا الى الاتهام ، ولكن الحديث عن امة مصرية او امة سورية يعتبر تقدمية وديمقراطية . وكان هجوم الفلاحين العرب سنة ١٩٢٩ على المستعمرات اليهودية والقضاء على من فيها يشجب ويستنكر على اعتبار انه همجية، بينما يعتبر الشجب وطنية * . وحين اغتصبت الاسكندرونة حرصت الاحزاب الشيوعية على الا تستنكر هذا العدوان ، وعندما شن الصهيونيون حربهم في فلسطين سنة ٤٧ ـ ٤٨ لاجلاء سكانها العرب عنها اعتبر دفاع العرب عن انفسهم حربا قذرة ولم تستنكر المذابح التي قام بها الصهيونيون ضد العرب كما استنكرت « مذابح » ١٩٢٩ .

لقد قرات مشروع برنامج الحزب الشيوعي الاردني في اوائل الخمسينات ، وكنت صديقا للشيوعيين ، فوجدته يدعو لقيام دولتين ديمقراطيتين عربية ويهودية في فلسطين . وناقشني اصدقاء شيوعيون سنة ١٩٥٣ ، وسنة ١٩٥٤ مؤكدين ان « يهود فلسطين » الصهاينة امة تامة لها كل مقومات الامة حسب تعريف ستالين ، وان لهؤلاء حق البقاء والحياة بسلام مثل غيرهم من الامم . ولقد غير الشيوعيون مواقفهم مرات بعد هذا التاريخ من الحركة العربية ، ولكنهم بالنسبة لقضية فلسطين ظلوا يتحايلون .

---

* ـ كان موقف الكومنترن سليما اذ ادان القيادات التي شجبت حركات سنة ١٩٢٩ ، واعتبرها صهيونية .

وهكذا لم تحن الحركة الشيوعية قادرة على أن تربط بين النضال من اجل الوحدة والنضال ضد الاستعمار ، كما انها لم تع العلاقة بالضبط بين وجود الاستعمار في المنطقة ووجود دولة الصهاينة .

ان الماركسية تنادي بالاممية، ولكن من خلال وحدة الشعوب المجزاة ، وتحرر الشعوب المستعمرة، والاممية بالنسبة لها لا تعني قبول استعمار سكاني الماني للاتحاد السوفياتي مثلا، فلقد قام الاتحاد السوفياتي تحت هذا الشعار : « اتحاد حر بين شعوب حرة » .

ان موقف الاحزاب الشيوعية لم يكن موقفا ماركسيا لينينيا .

— ٣ —

في بعض فترات « الصحو » ، كانت بعض الاحزاب الشيوعية تطرح قضية الوحدة بشكل او باخر في برامجها . وسنقدم فيما يلي صورة عن هذه البرامج :

١ ــ عقد مؤتمر في موسكو سنة ١٩٣١ للاحزاب الشيوعية في سورية ولبنان وفلسطين ، وقد صدر عن الاجتماع بيان يعتبر من اهم وثائق الاحزاب الشيوعية العربية، ذلك انه:

ا ــ حدد العلاقة بين الامبريالية والتجزئة ، فالامبريالية والتجزئة مترابطتان و « يقوم النظام الامبريالي السائد في البلاد العربية ليس فقط على استعباد واخضاع الشعوب العربية بل على الواقع بانها جزئت وفقا لمصالح العالم الامبريالي . ويظهر العالم العربي بين الامبريالية الانكليزية والفرنسية والايطالية والاسبانية توازن القوى هذه بشكل يجعل سيطرتها مستمرة » ... و « انقطع شيء في قضية العرب كون الامبريالية الانكليزية والايطالية والاسبانية والفرنسية جزات الجسم الحيوي للشعوب العربية وحكمتها حكما اقطاعيا ، وحرمت كلا منها من تحقيق التطور السياسي والاقتصادي وجمدت وحدة العرب السياسية » .

ويشير البيان الى سيطرة الاستعمار على اقتصاديات كل قطر قائلا: « والامر العام المشترك والحتمي بين سائر البلدان العربية ، هو ان الامبريالية وضعت يدها على المفاتيح السياسية والاقتصادية ، فكانت تدير المصارف الكبيرة والمصانع والخطوط الحديدية والمرافىء والملاحة والمناجم ومعظم انظمة الري والتجارة الخارجية وديوان الحكومة . واستولى الامبرياليون الطغاة على اجود الاراضي في مراكش والجزائر وتونس وطرابلس ومصر وسوريا وفلسطين. وقد أستخدمت الامبريالية الانكليزية رجال الثورة المضادة الصهيونية للاستيلاء على اراضي فلسطين ، وقضي على الفلاحين العرب بالفقر وحرموا من اراضيهم » .

ب ــ اعتبر البيان « ان اهم واجب من واجبات الكفاح الثوري للتحرر من الامبريالية في منطقة الشرق الادنى الواسعة هو حل قضية العرب

الوطنية » . وهذه القضية هي قضية « الوحدة الوطنية والاستقلال » فالعرب « ذوو لغة واحدة وتقاليد تاريخية واحدة وعدو واحد » ، و « الثورة العربية تجد صداها دون توقف في كل قطر من اقطار العالم العربي ابتداء من فلسطين حتى مراكش » . و «كفاح العرب لوحدتهم القومية رغم الحدود السياسية الاصطناعية ليس من وحي الامبريالية بل من وحي تقريرهم الحر الذي هو لا ينفصم عن السعي لتحرير انفسهم من النير الامبريالي الانكليزي والفرنسي والايطالي والاسباني» .

جـ ـ يتحدث البيان عن دور الفلاحين العرب والقبائل في الحركات المناهضة للامبريالية ، اما النتيجة التي يصل اليها فهي ان « اعتماد هذه الظروف المختلفة ضروري لموضوع اقامة علاقة بين النضال ضد الامبريالية وثورة فلاحي الشعوب العربية » . ويضيف : « ويجب على الاحزاب والهيئات الشيوعية في البلاد العربية الانتباه لدراسة هذه الظروف والاستفادة منها لمصلحة الكفاح الثوري » .

د ـ ينتقد البيان :

١ ـ الحزب الشيوعي لانه لم « يعمل بسرعة وحزم لقيام الثورة الزراعية للفلاحين وتنظيم عملهم بحيث يكون ضد الامبريالية والاقطاع » .

٢ ـ ولانه لم يثر « شعار التحرر الوطني للشعوب العربية » ... « فرغم قرار الشيوعية الدولية الواضح ، فان الكفاح لاجل حرية الشعوب العربية من نير الامبريالية الانكليزية والفرنسية ، ومن الامبريالية عامة ، لم يأخذ مكانه في منهج الحزب الشيوعي في سوريا وفلسطين ومصر . فبعض الجماعات الشيوعية ، وبعض الشيوعيين في العراق والجزائر وتونس ، لم يعيروا اهتماما لهذه المسألة » ... « فالانتهازيون وخصوصا اليمينيون منهم ، الذين يستسلمون امام القوى الكبيرة والبرجوازية الوطنية على حساب القومية ، هم احد عراقيل الحركة الشيوعية في البلاد العربية» .

٣ ـ يذكر ازمة الحزب الشيوعي في فلسطين سنة ١٩٢٩ وعزلته عن « جموع العرب نتيجة لانحراف الصهيونية التي تحارب تعريب الحزب » .

٤ ـ يذكر عزلة الحزب الشيوعي في مصر عن الشعب « في وقت عصيب عندما بلغت ثورة الشعوب اوجها ، اذ لم يكن في وسعه كشف قادة الوفد الذين خانوا الثورة، فضلا عن كونه ارتكب خطأ الابتعاد عن حركة مناهضة الامبريالية » .

٥ ـ وينتقد ما اسماهم « الانتهازيين اليمينيين » في سورية الذين « يعارضون اي تصريح للحزب الشيوعي الى جموع العمال والفلاحين، ويعارضون وجوده بحجة ان الحزب الشيوعي يحارب تحت رايته الخاصة الامبريالية الفرنسية » .

ومن خلال هذا كله يطرح البيان ما يلي :

اولا : قيادة الحزب الشيوعي « للصراع من اجل الاستقلال والوحدة الوطنية ليس فقط ضمن الحدود الضيقة والاصطناعية التي اوجدتها الامبريالية ، ومصالح عروش بعض البلاد العربية ، بل لاجل استقلال البلاد العربية وتوحيد الشرق بكامله » . اما شكل هذه الوحدة السياسي فهو « الاتحاد الفدرالي» .

ثانيا : العمل من اجل الوحدة الوطنية « في شكل اتحاد فدرالي للعمال والفلاحين العرب » .

ثالثا : « ايجاد اتصال منتظم وطويل الامد من اجل تبادل الاراء وربط العمل في البدء بين الاحزاب الشيوعية في مصروسوريا وفلسطين وشيوعيي العراق ، والتفكير بانه من الضروري في المستقبل ايجاد تعاون بين الشيوعيين في طرابلس وتونس ومراكش والجزائر . وبعد اتخاذ التدابير من اجل تنظيم وتوحيد الشيوعيين في الجزائر وتونس ومراكش تكون الخطوة التالية فصل منظمات هذه البلاد عن الحزب الشيوعي الفرنسي وجعلهم وحدة مستقلة » (٢٥) .

ان هذا البيان يكشف عن وعي عميق لمضمون القضية العربية، ويظهر تفهما نفاذا لدور الامبريالية وضيعها الاقطاع في التجزئة ، ويحدد الشعارات السليمة استراتيجيا ومرحليا : الاستقلال ، الوحدة الوطنية ، تحالف العمال والفلاحين؛ مع ان شعار الاتحاد الفيدرالي موضوع نقاش .

٢ ـ نجد مثل هذا الاتجاه في برنامج عمل الحزب الشيوعي المصري، الصادر في نفس الفترة التاريخية : تأكيدا على تحالف العمال والفلاحين من اجل قيام «دكتاتورية الديمقراطية الثورية للفلاحين والعمال » ، وربط بين تحرر الشعب المصري من الامبريالية وتحرر الشعب العربي في كل اقطاره ، « فالعمال والفلاحون المصريون اذ يحاربون من اجل تحررهم ، فانما يحاربون من اجل تحرير جميع الشعوب العربية من الامبريالية وفي سبيل وحدتها التامة » . ويرفع البرنامج سياسيا شعار « الكفاح لاستقلال العالم العربي من نير الامبريالية ، ومن اجل اتحاد فدرالي بين الشعوب العربية الحرة » .

ويجعل البرنامج من استراتيجيته « اقامة حكومة عمال وفلاحين ذات نظام سوفياتي » و « مصادرة ،دون اي تعويض ، جميع الاراضي والحيوانات الداجنة واراضي الامبرياليين الزراعية والملاكين والمرابين والملك والطبقة البيروقراطية العليا واملاك الوقف العام والخاص، وتوزيعها على صغار المزارعين والفقراء وطبقة الفلاحين الوسطى الذين لم يستغلوا عمل غيرهم » و « تأميم

٢٥ ـ ايفار سبكتور ـ المصدر السابق ص ( ١٠٥ ـ ١١٥ )

جميع مشاريع الري وجميع الالات المستعملة كالمضخات وغيرها وتعميم الري المجاني لفقراء الفلاحين » ؛ و« مصادرة وتأميم جميع مصارف الامبرياليين ومؤسساتهم الصناعية» (٢٦) .

٣ ــ وتسود هذه الروح مقررات المؤتمر السابع للحزب الشيوعي الفلسطيني .

٤ ــ يفتقد الميثاق الوطني للحزب الشيوعي في سورية الذي اقره المؤتمر الوطني للحزب في أول كانون الثاني سنة ١٩٤٤ الى الروح التي تبدو واضحة في «البرامج» السابقة، فهو في ميدان السياسة العربية يكتفي بالنص على « توثيق صلات التضامن الوطني بين الشعوب العربية لتحقيق تحررها الكامل » و « توطيد الروابط الاقتصادية والثقافية بين سورية وجميع الاقطار العربية الشقيقة » . وفي مجال السياسة الاجتماعية والاقتصادية يكتفي الميثاق برفع شعارات « تأمين الحريات الديمقراطية » و « حماية العمال » و « تحرير الفلاح السوري من التاخر والبؤس والجهل » ، وان كان يطالب « ببسط السيادة الوطنية على المؤسسات المالية والصناعية والتجارية الاجنبية » (٢٧) . واين هذا كله مما جاء في البرامج السابقة. وقد ظلت هذه الروح المعتدلة سائدة في الحزب حتى الان ، وان كانت قد حدثت تغيرات في النظرة لقضية الوحدة العربية في سنوات ( ١٩٥٥ ــ ١٩٥٨ ) . فلقد اعلن خالد بكداش سنة ١٩٥٥ بان العرب امة وتتوفر فيهم كل شروط الامة حسب تعريف ستالين (٢٨) . وقد اكد هذا الاتجاه في قرارات اللجنة المركزية لسورية ولبنان سنة ١٩٥٦ التي نصت على « ان طموح البلدان العربية الى وحدتها ليس وليد ظروف طارئة ، او رغبة عاطفية ، ولا نتيجة لدعاية فكرية قام بها حزب او فريق من الناس ، بل هو مظهر لحاجة واقعية، ونتيجة لتطور تاريخي موضوعي مستقل عن الرغبات والارادات » . وتضيف القرارات « ان الحجر الاساسي في الانطلاق نحو الوحدة العربية هو التعاون بين البلدان العربية المتحررة»، بينما اعتبر النضال الفلاحي العمالي من قبل سنة ١٩٣١ مثلا هو طريق الوحدة والاستقلال.

ثالثا : لم يربط النضال من أجل التحرر بالنضال من اجل الوحدة كما جرى في قرارات سنة ١٩٣١ ، بل رفع شعار « التضامن مع الشعوب العربية التي ما تزال رازحة تحت نير العبودية الاستعمارية في نضالها الباسل من اجل حريتها واستقلالها

٢٦ ــ ايفار سبكتور ــ المصدر السابق ص ( ١١٥ ــ ١٢٥ )

٢٧ ــ الياس مرقص ــ تاريخ الاحزاب الشيوعية ص ــ ٢٢١ ــ

٢٨ ــ الياس مرقص ــ المصدر السابق ص ــ ٢٣٧ ــ

٢٩ ــ الياس مرقص : المرجع السابق ص ــ ٢٤٥ ــ

الوطني » ... ! (٢٩) .

ولا بد ان نذكر ان هذه القرارات قد اتخذت خلال ظروف سياسية معينة تميزت بمد شعبي عربي وحدوي ، كان لحزب البعث العربي الاشتراكي دور بارز فيه .

ولم يكن مضمون التقرير الذي قدمته اللجنةالمركزيةللحزب الشيوعي العراقي من هذه الناحية ليختلف عن قرارات اللجنة المركزية للحزب الشيوعي في سورية ولبنان . فهو يؤكد وحدة الامة العربية حسب تعريف ستالين للامة ، ولكنه يجعل قضية الوحدة العربية قضية تقارب وتعاون بين شعوب الامة العربية (٣٠) .

ولقد جاء موقف « الحزب الشيوعي المصري » انضج واعمق فلقد اكد في احدى دراساته :

١ ــ ان الامة العربية امة واحدة، وان نشوء القومية العربية يختلف عن نشوء القوميات الاوروبية في القرن التاسع عشر .

٢ ــ ان الامة العربية لا تشترك في حياة اقتصادية واحدة ، وهذا راجع الى سيطرة الدول الاستعمارية المختلفة على الاقتصاديات العربية .

٣ ــ ان الحركة العربية « في جوهرها حركة شعبية نضالية معادية للاستعمار . فالاستعمار هو الذي اقام الحدود والحواجز في وجه هذه القومية فمزق وحدتها ، وسعى لطمس معالمها وعرقلة نموها . ولهذا كانت معركة التوحيد معركة في جوهرها معادية للاستعمار » (٣١).

ولم نقرأ حتى الان برامج جديدة للاحزاب الشيوعية ، لنقدم أخر تطوراتها .

ولقد ظهرت سمة هذه«القرارات» التكتيكية ــ كما راينا ــ سنة ١٩٥٨، وبعد ثورة الرابع عشر من تموز بالذات . وكم كنا نتمنى لو أن الشيوعيين العرب قد حاربوا سنة ١٩٥٨ وما بعد من خلال الوحدة لا من خلال الانفصال . لو انهم ربطوا بين الديمقراطية والوحدة ، وبين النضال من اجل الوحدة ، والنضال ضد الامبريالية . لقد رفعوا شعار الديمقراطية مقابل شعار الوحدة ، ورفعوا شعار النضال ضد الاستعمار مع شعار « الانفصال » ، في الوقت الذي كانت فيه الجماهير مع الوحدة ضد الانفصال ، لانها تدرك بحسها السليم ان النضال من اجل الوحدة ، هو النضال ضد الامبريالية ....

ــ ٤ ــ

ادت تخبطات الاحزاب الشيوعية في الوطن العربي الى ما يلي :

اولا : عزلت هذه الاحزاب عن جماهير العمال والفلاحين

٣٠ ــ الياس مرقص : المرجع السابق ص ــ ٢٤٩ ــ

٣١ ــ الياس مرقص : المرجع السابق ص ــ ٢٥١ ــ

والبرجوازية الصغيرة .

ثانيا : عززت القيم المثالية والعقلية المحافظة في بعض هذه الاوساط ، لانها ابعدتها عن الماركسية اللينينية، وجعلتها تبحث عن الغذاء الفكري في الفكر الغربي المعتدل ، وتقع تحت تاثير فلسفات اخرى كالفاشية والنازية .

ثالثا : ساعدت الرجعية العربية على اتخاذ مواقف صارمة من الشيوعيين ، لانها حرمتهم في كثير من الاحيان من اي عطف شعبي .

ولم تخسر القضية العربية الشيوعيين كمناضلين ، بل خسرت حركة التحرر العربي الماركسية اللينينية كمنهج في التحليل العلمي، وكاداة لبلورة « استراتيجية عربية ثورية » .

**في العدد القادم :**

**«الحركةالعربية والكتاب الشيوعيون»**


## مجموعات شعرية

●

| | |
|---|---|
| البال | بدر شاكر السياب |
| شناشيل ابنة الجلبي | بدر شاكر السياب |
| الناي والريح | خليل حاوي |
| نهر الرماد | خليل حاوي |
| واحة الجحيم | يوسف الخطيب |
| غابة الحجارة | رفيق خوري |
| جراح تغني | كمال ناصر |
| صلوات للريح | خليل خوري |
| جنازة كلب | ابراهيم سلامة |

**منشورات دار الطليعة ـ ص.ب ١٨١٣**

# نماذج مِن مُعالجَات الشيُوعيّين للقضَايا العرَبيَة

نَابجي علوش

« تنشر هذه الدراسة والعالم يعاني الامرين من هجمات اليمين الشرسة على الحركات التقدمية في العالم . انهذه الهجمات تستعمل السلاح والقتل كمـــا تستعمل الفكر والتضليل . ولكني اعتقد ان هذا يجب ألا يحول دون مناقشة اخطاء الحركات التقدمية وتناقضاتها » .

ن.ع

## خامسا : الفكـــر الماركسي والواقع العربي

لا يمكن الفصل بين تجارب الاحزاب الشيوعية ، ومساهمات المفكرين والكتا بالشيوعيين في الفكر السياسي العربي الحديث . ومع هذا ، فان دراسة نماذج من هذه المساهمات ، تزيد الصورة التي قدمتها عن « التجارب الشيوعية » في الوطن العربي وضوحـا ، وتكشف حقيقة اتجاهاتها ، وابعاد هذه الاتجاهات ، والظروف التي احاطت بها .

وطبيعي الا يكون هنالك مجـال للتفريق ، ما دام قادة الاحـزاب الشيوعية وسياسيوها هـم كتابها ومفكروها . لقد مارس هؤلاء قيادة العمل ، وتوجيه « الفكر » فـي آن واحد ، ولذلك فنحن نجد سياستهم في فكرهم ، وفكرهم في سياستهم . ولهذا فلن يكون غريبا ان يمر هؤلاء الكتاب والمفكرون بنفس «التعرجات» والتناقضات التي مرت بها «التجارب الشيوعية» محلية ودولية .

والجدير بالذكر ان الحـركات الشيوعية ، لم تخلق حلفاء مـــن الماركسيين الذيـــن يقومون بـدور فكري ، ولم تنجب مفكرين يقدمون دراسات ذات قيمة ، تبقى اهميتهـا مع الزمن ، ولا تتأثـــر بالتقلبات السياسية .

ولعله من الضروري ان نذكر ان ما نقدمه ليس الا نماذج ، تحـــدد الاتجاهات ، وتبين الابعاد ، ولكنهـا لا تتناول كل كتاب الحركات الشيوعية العربية ومفكريها بالدراسة .

وانني ارى ان هنالك عددا مـن الملاحظات لا بد من ذكرها هنا. وهذه الملاحظات هي :

١ ـ ان الحركات الشيوعية فـي الوطن العربي لم تخلف تراثـا كبيرا وهاما ، ذلك ان ما قدمته لا يتعدى عددا من المقالات الصحفية والدراسات العابرة ، الا فيمـــا ندر . فليـس للحركات الشيوعية ما يمن ان نسميه تراثا فكريا ، او ادبيا ، وانمـا هنالك بعض الكراسات ، وقليل من الكتب السياسية والادبية التي تستحـق الاهتمام .

٢ ـ هنالك بعض النشاط الفكري والسياسي الذي قام به قـــادة شيوعيون باسماء مستعارة ، او دون اسماء ، ومن غير الممكن الان تحديد هوية من كتبه ، او نسبته الى شخص معين ، وهذا يجعلني اعتمد على مـا نشر باسماء مؤلفيه .

٣ ـ هنالك بعض الكتاب الـذين ايدوا الحركات الشيوعية، او تأثروا تأثرا عميقا بالمبادىء الماركسية، ومع ذلك فليس من السهل ان نعتبـرهم شيوعيين . وان كانوا عمليا جـزءا من الحركة الشيوعية . ومن هؤلاء مثلا بندلي جوزي صاحب كتـاب « من تاريخ الحركات الفكرية فـي الاسلام » (١) .

٤ ـ وكانت هنالك عوامل تحول بين الشيوعيين المحليـن والعطـاء الادبي والفكري ، اهمها :

أ ـ وفرة التراث المـاركسي ـ اللينيني الذي كان عليهم ان يتعلموه، ويتمثلوه قبل ان ينتجوا .

ب ـ سيطرة الستالينية فكـرا ومنهجا علـى الحركات الشيوعية ١٩٢٨ ـ ١٩٥٦ .

ج ـ ما تعرض لـــه الشيوعيون المحليون من اضطهاد وتشريد .

د ـ عدم تفاعل الحركات الشيوعية تفاعلا عميقا مع الواقع العربي ـ وهو ما بيناه فيما سبق ـ (٢) .

هـ ـ ضحالة ثقافة القيادات ، وعجزها عن فهم الماركسية اللينينية فهما سليما ، وعدم قدرتهـا على تطبيقها على الواقع العربي .

وعلى الرغم من ذلك ، فان الحركات الشيوعية قد ساهمت في النهضـة الفكرية التي نعيشها الان مـساهمـة اخذت تبرز اهميتها يوما بعد يوم ، وخاصة منذ سنة ١٩٥٦ .

---

١ ـ صادر عن دار الروائع ، بيروت .

٢ ـ الحركة الشيوعية في الوطن العربي ـ العدد ٣ السنة ٢ مجلة دراسات عربية .

# اعادة نظر فـــي التاريخ الاسلامي

لم تجر ـ منذ الاسلام ـ اعادة نظر جدية وعميقة في التاريخ العربي . وكانت محاولات المستشرقين امـــا شكلية او مغرضة . وكان يقف فـي وجه اعادة النظر هذه احترام للتراث يصل احيانا حتى التقديس ، ناتـج عن ارتباط التاريخ العربي بالاسلام من جهة ، وبقضية بقاء الامة العربية ازاء هجمات «الشعوبية» والاستعمار من جهة ثانية . وعلى الرغم من ذلك، فان الاستاذ بندلي جوزي قد تجشم عناء القيام بهذه المغامرة . لقد ولد الاستاذ بندلي جوزي في بيت لحم بفلسطين ودرس في روسيا القيصرية، وعلم فـي جامعة باكـو ، وبقي فـي الاتحاد السوفياتي بعد قيام الثورة الشيوعية . ولم يكن الاستاذ بندلي جوزي شيوعيا ، كما علمنا ، ولكنـه على ما يبدو تأثر بالماركسية ، فقـام بتطبيق منهجها على التاريخ العربي، وكان من نتيجة ذلك كتابه « من تاريخ الحركات الفكرية في الاسلام » وعدد من الدراسات الاخرى (٣) .

ويمكن تلخيص نتائج ابحاث بندلي جوزي فيما يلي :

١ ـ « ان الاسلام كغيره مـن الاديان الكبيرة ليس فقط فكـرة دينية ، بل مسألـة اقتصادية واجتماعية ايضا ، او بالاحرى هـو مسألة اقتصادية واجتماعية اكثـر منه فكرة دينية » (٤) . وعليه فالحركة الاسلامية بنت عصرها وبيئتها (٥) والنبي محمد ( صلعم ) « عامـل اجتماعي ومصلح كبير » (٦) . وانه ليس اشتراكيا ، وان كان قد وقـف بجانب الفقراء (٧) .

٢ ـ « ان محمدا اجاد في وصف الامراض الاجتماعية العربية وتعدادها اكثر منه في علاجها واستئصـال جراثيمها . فان تصويـره لتلـك الامراض كان يبلغ احيانا حد الاعجاز، ويحدث في عقول سامعيه ومخيلاتهم تأثيرا لا يمحى . اما علاجه للـداء فكان اقل درجة من تصويره له الا ما ندر ، مثال ذلك ان النبي اول من تنبه الى استياء الطبقة السفلى في مكة والطائف من حالتها الاقتصادية والاجتماعية ؛ واول من ادرك اسباب هذا الاستياء ، الا ان ذلك لم يكـن ليحمله على قتل اسباب الاستياء قتلا قاضيا ، كان يمنع مثلا التجارة الشخصية ، ويجعلها كلها تحت مراقبة الحكومة التي اسسها فـي المدينة ، او يمنع الرق منعا باتا ، او ينتزع الاراضي مـن اصحابهـا

٢ ـ انظر مثلا المقتطف العدد الخامس المجلد الرابع والسبعون ١٩٢٩ ، والعدد الاول من المجلد الثالث والثمانين ١٩٣٣ .

٤ ـ « من تاريخ الحركات الفكرية فـي الاسلام » ـ بندلي جوزي ـ دار الروائع ، ص ١٧ .

٥ ـ المصدر السابق ـ ص ١٨ .

٦ ـ المصدر السابق ـ ص ٣٢ .

٧ ـ المصدر السابق ـ ص ٣٥ ـ ٣٦

ويجعلها ملكا لمن يعتملها ؛ او يحتكر بقية مصادر الثروة الفردية التي كانت ولا تزال اصل الشرور الاجتماعية . او يستعمل وسائط اخرى مما يشير اليها بعض الاشتراكيين في هذا العصر » (٨). ولقد كان القضاء على هذه الامراض قضاء مبرما . يقتضي ان يستعمل وسائل غير الوسائل الادبية التي استعملها (٩) .

٣ ـ ان ما ذكر سابقا ليس فيه « ما يقدح في ما ادخله المصلح العربي الامي من الاصلاح على امة متاخرة جاهلة . اذ ليس من العدل ان نطلب من النبي ان يستعمل في الربع الاول من العصر السابع . وسائل للاصلاح لم تهتد اليها الانسانية الا في اواسط الجيل التاسع عشر . ولم يتبين حتى اليوم نفعها المطلق . فلكل فصل زهوره . ولكل عصر رجاله كما يقول المثل الروسي » (١٠) .

٤ ـ يتعرض بندلي جوزي لاسباب التوتر في الامبراطورية العربية مرجعا اياها الى « سياسة الامبراطورية العربية على الاطلاق والاقتصادية على التخصيص » (١١) . ويمكن ان نحدد ملامح هذه السياسة فيما يلي :

ا ـ انشغال بالفتوحات عن احداث التغييرات الاجتماعية اللازمة .

ب ـ نظام الضرائب الذي « كان عبئا ثقيلا على عاتق الامم المغلوبة اكثر منه على عاتق الامة الفاتحة » (١٢) والذي لم يساو فيه بين « الملاكين القدماء من اهل البلاد ؛ وبين الملاكين الحديثين من المسلمين » (١٣) .

ج ـ لم تحل المساواة الفعلية بين العرب واخوانهم في الدين « وذلك لان العرب كانت تنظر الى هؤلاء الدخلاء في الدين والقومية العربية بعين الاحتقار خلافا للمبدا الجميل الذي جاء به النبي . وامر اصحابه باتباعه ؛ الا وهو مبدا المساواة في الحقوق والواجبات بين جميع المسلمين على اختلاف قومياتهم وطبقاتهم الاجتماعية واحوالهم الشخصية الخ... » (١٤) .

د ـ الاصلاحات التي تمت كمسح الاراضي وتسجيلها وسك النقود وتعريب دواوين الدولة ؛ ولقد «كان لهذه الاصلاحات ؛ كما لكل اصلاح مهم تقوم به احدى الدول مساس بمصالح بعض الامم او بعض الطبقات المادية وعواطفها القومية ؛ فلم تحبذ هذا الاصلاح ؛ لانها ظنته موجها الى مصالحها الخاصة ، وتقاليدها القديمة ؛ فكان هذا من جملة الاسباب التي جعلتها تنقم على الدولة المصلحة . وتعمل في السر والجهر على الايقاع بها . وتتبنى

---

٨ ـ المصدر السابق ـ ص ٤٥ ـ ٤٦

٩ ـ المصدر السابق ـ ص ٤٤ .

١٠ ـ المصدر السابق ص ٤٥

١١ ـ المصدر السابق ص ٥٥

١٢ ـ المصدر السابق ص ٥٦

١٣ ـ المصدر السابق ص ٦٦

١٤ ـ المصدر السابق ص ٥٨

سقوطها » (١٥) .

٥ ــ يدرس بندلي جوزي الحركات « الثورية » التي قامت ضد الدولة الاسلامية كالبابكية والقرمطية، فيبين طبيعة هذه الحركات واسبابها ، ثم يبين اسباب فشلها (١٦) .

ان بندلي جوزي يعيد الاعتبار لهذه الحركات ، بعد ان كانت تعتبر حركات شعوبية وهدامة ، دون ان ينسى ما كان وراء بعضها من مشاعر معادية للعرب .

وعلى الرغم من ان كتاب الاستاذ جوزي ينتهي بحركة القرامطة ،وعلى الرغم من ان هناك حقائق اوردها تحتاج الى كثير من التمحيص والدرس ، قبل القبول بصحتها ، فان الكتاب يظل هاما . ولعل اهميته البالغة تعود الى انه ادخل منهج التحليل الماركسي على دراسة التاريخ العربي .

اما لماذا كتب بندلي جوزي هذا الكتاب ، فهو الاهم ايضا . لقد اراد ان يثبت « ان تاريخ الشرق وحياته الاجتماعية ، وعقلية شعوبه على الاطلاق ، والشعوب الاسلامية على الاخص ، تخضع لنفس النواميس والعوامل التي تخضع لها حياة وتاريخ الامم الغربية ، وان امم الشرق قطعت في حياتها الطويلة ، وستقطع ذات المراحل او الادوار الاجتماعية التي قطعتها الامم الغربية » (١٧) . ويبني على هذا الاستنتاج اعتقادا اخر بان الشعب العربي سيمر بنفس الادوار التي مرت بها امم الغرب ــ اخواننا في الانسانية (١٨) .

والملاحظ ان بندلي جوزي يكثر من ذكر العرب والامة العربية في ابحاثه . وهو يرى ان الامة العربية « تتحفز للدخول في دور جديد من حياتها التاريخية الطويلة » ، ويامل : « ان تستعيد فيه وحدتها القومية المنشودة ، وتوحد كلمتها المفقودة » (١٩) .

## آراء مادية في الحركة الوطنية العربية

كما درس الاستاذ بندلي جوزي بعض تاريخ الاسلام من خلال المنهج الماركسي ، درس الاستاذ نجاتي صدقي الحركة العربية من خلال المنهج ذاته . والفرق بين الاستاذ جوزي والاستاذ نجاتي صدقي هو ان الثاني من المع قادة الحركة الشيوعية خلال السنوات ٢٤ــ٣٨ . ولقد ساهم في تأسيس الاحزاب الشيوعية في فلسطين وسوريا

---

١٥ المرجع السابق ص ٦٨

١٦ ــ المرجع السابق ــ الفصل الثالث وما بعده .

١٧ ــ المرجع السابق ص ١٥ .

١٨ ــ المرجع السابق ص ٢٣٧

١٩ ــ المقتطف المجلد الرابع والسبعون ، الجزء الخامس ــ مايو ١٩٢٩ .

ولبنان ، كما اشترك في عدد من المؤتمرات الحزبية الهامة التي عقدت في الوطن العربي او الاتحاد السوفياتي، وكان احد الشيوعيين العرب القلائل الذين اشتركوا في الحرب الاسبانية . وكان الاستاذ نجاتي صدقي الماركسي منذ البدء يعي المعنى الحقيقي للوحدة العربية ، ويحمل بيان مؤتمر الاحزاب الشيوعية في لبنان وسورية وفلسطين الذي عقد في موسكو سنة ١٩٣١ ، كما تحمل مقررات المؤتمر السابع للحزب الشيوعي الفلسطيني ، وبرنامج الحزب الشيوعي المصري ملامح تفكيره (٢٠) .

ويرى الاستاذ نجاتي صدقي ان هنالك خمسة مقومات ضرورية لوجود الامة هي :

« ١ ـ تاريخ قومي وثقافة قومية، ٢ ـ رابطة اقتصادية ، ٣ ـ مناطق معلومة من الاراضي، ٤ ـ لغة جامعة، ٥ ـ سيادة سياسية » . ويطرح الاستاذ صدقي هذا السؤال على نفسه « ونحن العرب ما هي المقومات التي تنقصنا حتى نصبح امة كاملة موحدة ؟ » ويجيب : « لنا تاريخ عربي قومي حافل ، وثقافة انسانية رائعة، وارض محددة معينة، ولغة جامعة ... ولكن تنقصنا الرابطة الاقتصادية والسيادة القومية » . ويضيف بعد ذلك متسائلا: « فكيف حصل هذا النقص ، وما هي اسبابه ومسبباته وكيف تمكن معالجته ؟ » . لقد حصل هذا نتيجة الاستعمار الذي « سحق مقوماتنا الاقتصادية ، وجعلنا سوقا لاستثمار امواله وتصريف منتوجاته» . وما دام ليس لنا كيان اقتصادي مستقل ، فاننا لن نتمتع بالسيادة القومية (٢١) .

ونلاحظ ان الاستاذ نجاتي صدقي على الرغم من انه يعتبر العامل الاقتصادي عاملا اساسيا في التقدم، الا انه وضع التاريخ القومي والثقافة القومية في مقدمة العوامل اللازمة لتكوين الامة . وهو عندما اعتبر الرابطة الاقتصادية من مقومات وجود الامة ، لم يخلط بينها وبين الوحدة الاقتصادية او التكامل الاقتصادي ، ولم يفته ان تفكك الرابطة الاقتصادية بين البلدان العربية ناتج عن الاستعمار ، وهذا ما فات خالد بكداش وغيره عندما عالجوا نفس الموضوع . ونلاحظ ايضا أن الاستاذ نجاتي صدقي لم يلتزم بالتعريف الستاليني للامه الذي يقول : « فالامة ـ هي جامعة اناس ثابتة تألفت تاريخيا ، نشأت على اساس جامعة اللغة والارض والحياة الاقتصادية والخصائص

٢٠ ـ دراسات عربية ـ العدد ٣ السنة الثانية ـ الحركة الشيوعية في الوطن العربي ـ الصفحات ٨١ ـ ٨٤

٢١ ـ الجمهور الجديد ـ العدد ١٠٦ سنة ١٩٣٨ ـ بيروت ، تاثير العامل الاقتصادي في حياتنا القومية .

النفسية التي تتجلى في جامعة الثقافة » (٢٢) .

ان اهم بحث كتبه الاستاذ نجاتي صدقي هو بحثه المعنون « اراء مادية في الحركة الوطنية العربية ، من الانقلاب الاتحادي الى عهد الكتلة الوطنية » (٢٣) . يحلل هذا البحث الحركة العربية تحليلا ماركسيا ، فيبين اولا اختلاف السيادة التركية عن الاستعمار . ذلك ان السيادة التركية « كانت تمثل مصالح اقطاعيي الاناضول وتجار الاستانة ، بينما الاستعمار الذي نخضع له اليوم يمثل مصالح اصحاب المصارف المالية » . ولهذا فان « تركيا وكيل تجاري للدول الراسمالية » ، « اي ان تركيا بحد ذاتها لم تكن دولة استعمارية بالمعنى الصناعي الراسمالي ، بل كانت عميلة لمختلف الدول الاستعمارية ، تعيش مما كانت تتقاضاه من عمولات على المنتوجات الغربية الداخلة الى اسواق البلاد العربية . وهذا ما يفسر تهاونها واستهتارها بمختلف اجزاء هذه البلاد، ومساومتها الدول الاستعمارية على احتلال مصر عام ١٨٨٢، وطرابلس الغرب عام ١٩١٢ » . وبعد هذا يحدد الاستاذ صدقي سبب اتفاق العرب والاتراك من سنة ١٩٠٨ حتى سنة ١٩١٢ . والاتفاق لا يعود في رايه الى الرابطة الدينية ، كما يقول المؤرخون المثاليون ، بل الى رغبة مشتركة « في تحطيم الحكم الحميدي ممثل الاقطاعية الاستبدادية المطلقة. فالاتراك رغبوا في تحطيمه مدفوعين بعامل الانقلاب البرجوازي الديمقراطي الرامي الى كسر شوكة السلطان المستبد ، وتمكين العناصر التقدمية التركية ان تسير بالبلاد نحو الهدف الذي تسعى هي اليه ، والعرب رغبوا في تحطيمه مدفوعين بعامل التحرير الوطني الرامي في هدفه التاريخي الى الانفصال عن الاتراك ، وايجاد مقومات خاصة بالشعوب العربية ، تضمن لها سيادتها القومية السياسية والاقتصادية . وهكذا اجتمعت الرغبتان ، وكانت الوحدة العثمانية والجامعة الاسلامية مظهرا خارجيا فقط لاجتماع المصالح والرغبات ».

ويحاول الاستاذ نجاتي صدقي ان يحدد بداية الحركة الوطنية العربية، فيذكر انها بدات منذ حصل اول صدام مع الاتراك ، وهو لذلك يعتبر « الثورة اليمانية والنجدية والدرزية واللبنانية كلها كانت مظاهر مختلفة من مظاهر الحركة الوطنية العربية» ولكن هذه هي البداية العفوية ، اما البداية التي اتخذت « شكلا منظما واعيا » فقد كانت يوم ٢٣ يوليو سنة ١٩٠٨ « عندما ثار الشعب بقيادة حزب الاتحاد والترقي على السلطان عبد الحميد » .

٢٢ ـ ي. ستالين ـ الماركسية والمسالة الوطنية ، موسكو ، ١٩٥٢ ، ص ١١

٢٣ ـ مجلة الطليعة ، الاعداد ٩ و ١٠ من سنة ١٩٣٧ والعدد ١ ـ ٢ و ٣ و ٤ من سنة ١٩٣٨ .

ويرى الاستاذ نجاتي صدقي ان عوامل نشوء الحركة الوطنية العربية هي :

اولا : وهذا هو « العامل الاصلي» كما يسميه « ان بذور الراسمالية بدات تذر في التربة العربية : كانت فاتحة القرن العشرين فاتحة ازدهار الاستعمار الغربي ، وتغلغله في الاقطار العربية ، وادخاله اسواق هذه البلاد في معامع النضال الراسمالي ، فتألفت البنوك الاجنبية بكثرة مثل ( اتومان بانك ) و ( ديتشه الجمنيه بانك ) و ( الكريدي ليونيه)، وانشبت مخالبها في الاقتصاديات العربية ، واخذ العرب يهتمون بحركات البورصة والكامبيو ،واتصلوا بالشركات التجارية الراسمالية الاجنبية ، وتعاظم فيما بينهم التداول النقدي بعد ان اخذت تتلاشى معالم المقايضة بالمحصولات الطبيعية ،فنتج عن هذا كله بروز جماعات شبه راسمالية عربية ، اخذت تعمل متأثرة براس المال الاجنبي ، محاولة تتبع خطاه على تحطيم الحواجز التي وضعها الحكام الاتراك في سبيل تطور اقتصاديات العرب ، ووسائل انتاجهم » .

ثانيا : تضاف الى هذا العامل الاقتصادي عوامل جوهرية مثل « سخط العرب على الاستبداد التركي ، وحبهم لقوميتهم التاريخية، وللغتهم الحية ، ولثقافتهم الشهيرة، ولمدينتهم العظيمة ، وحنينهم الى مجدهم الغابر » .

ولقد مرت الحركة الوطنية العربية بمراحل ثلاث :

الاولى : ١٩٠٨ ــ ١٩١٢ ، وكان شعارها المساواة مع الاتراك .

الثانية : ١٩١٢ ــ ١٩١٤ ، وكان شعارها الاستقلال الذاتي او اللامركزية الادارية .

الثالثة : ١٩١٤ ــ وكان شعارها الاستقلال التام .

ويرد الاستاذ نجاتي صدقي اشتراك الارستقراطية العربية في الحركة الوطنية ، الى انها كانت تطمح بالاستيلاء على الاراضي العربية الخصبة التي استولى عليها الحكام والاقطاعيون الاتراك ، هذا بالاضافة الى «روابط الجنس والدين والتاريخ» .

ويعتبر الاستاذ نجاتي صدقي «ان ثورة العرب على الاتراك كانت ثورة وطنية ترمي الى استقلال الشعوب العربية ، واعلان سيادتها القومية على اراضيها» . ولكن الثورة العربية فشلت فما هي اسباب فشلها ؟ ان الاستاذ نجاتي صدقي يوجزها فيما يلي :

« اولا : حالة الحرب التي انهكت العرب ، وما تبعها من امراض وجراد ... الخ. » .

ثانيا : « عدم نضج العرب سياسيا وقوميا وتنظيميا ، اذ ان الهيئات السياسية التي وجدت في تلك الايام كانت هيئة خاصة « بعلية القوم » ، ولم تكن لها تنظيمات تنور الشعب وتقوده » .

ثالثا : تقهقر العائلة الهاشمية امام الانكليز والفرنسيين ، وانهماكها بمقاتلة الوهابيين .

رابعا : « اندفاع الاستقلاليين وراء الخيال في مسألة الوعود والعهود» .

# وجهة نظر في الاســلام والنازية

بعد هذه المساهمة الهامة قام الاستاذ نجاتي صدقي بمساهمة اخرى هي عبارة عن مجموعة من المقالات الصحفية التي نشرت في كتاب تحت عنوان : « التقاليد الاسلامية والمبادىء النازية هل تتفقان » سنة ١٩٤٠ . والكتاب مقارنة عابرة بين التقاليد الاسلامية السمحاء ، والنازية الطاغية الباغية. ويقول الاستاذ نجاتي صدقي بأنه بحث هذا الموضوع « كمسلم عربي تشرب الروح الديمقراطية الصحيحة، ووقف قلمه على خدمة امته ووطنه» (٢٤) ، وانه فعل ذلك : « خدمة للشرق ، وتوطيدا للعلاقات الروحية والمادية بين المسلمين طرا ، وشعبي انكلترا وفرنسا النبيلين » (٢٥) . وتنبع اهمية هذه المقالات من انها :

١ ــ حددت موقف كاتبها من الاسلام على انه : « ثورة قومية اجتماعية نهضت بالعرب من وهدة الجهل والتأخر ، وفتحت امامهم افاقا من التقدم والتطور » وعلى انه ايضا : « سنة ضرورية تاريخية في حياة الامة العربية والشعوب الاسلامية » (٢٦) .

٢ ــ حددت موقف كاتبها من القوى المتصارعة في الحرب العالمية الثانية . كان طبيعيا ان يكون الاستاذ نجاتي صدقي في صف الحلفاء ما دام شيوعيا ،ومعاديا للنازية ، ولكن هل كانت تقديراته صحيحة في تقييمه لسياسةالحلفاء من جهة ، وللحركة الوطنية في البلاد العربية من جهة ثانية ؟ لقد اخطأ الاستاذ نجاتي صدقي في تقديراته كما اخطأ كل الشيوعيين العرب . اذ انه تسرع فاعتبر امبراطورتي بريطانيا العظمى وفرنسا الجمهورية امبراطوريتين ديمقراطيتين مع انهما امبراطوريتان واستعماريتان ، ولن تكونا ديمقراطيتين في الوقتذاته ، وزاد على ذلك واصفا الحلفاء بانهم « يتحلون باللين والهوادة ، ويراعون العادات ومزاولة الناس اعمالهم ، والتمتع بالحرية الفردية » (٢٧). اما موقف العرب من الدول المستعمرة، فهو « موقف الرجل المطالب بالاخوة والمساواة ، لا الانفصال عنهاوالوقوع في براثن الدول الفقيرة الجائعة» (٢٨) . اما قضية الاستقلالوالتحرر فهي ليست قضية نضال فلاحي عمالي ــ كما طرحها سابقا ــ بل هي قضية تتعلق بتفهم الحلفاء لتأييدنا لهم ، « فنحن شعوب تطمح الى مثل عليا في الحياة ، تطمح الى حياة الحرية والاستقلال ، فتأييدنا

٢٤ ــ نجاتي صدقي « التقاليد الاسلامية والمبادىء النازية » ، ص ٥

٢٥ ــ المرجع السابق : نفس الصفحة .

٢٦ ــ المرجع السابق : ص ١٦

٢٧ ــ المرجع السابق : ص ٥٦ ، والكلام موضوع بين قوسين في الاصل .

٢٨ ــ المرجع السابق : ص ٦٥

للحلفاء يجب ان يقابل بالمثل . اننا جنود الحرية في كل وقت وساعة ، على ان نلمس لمس اليد اننا نضحي بحياتنا لا لرد الاذى عن بولونيا او نروج فقط ، بـــل لكي نتمتع بدورنا بالسيادة الوطنية ، وبالتقدم القومي والانساني والاقتصادي والاجتماعي» (٢٩) . وقد استنكر الاستاذ نجاتي صدقي ــ انطلاقا من هذا الموقف ــ مذكرة حزب الوفد المصري التـــي تطالب بجلاء القوات الانجليزية ، وحرية التجارة مـــع المتحاربيـــن ، معتبرا ان مثل هذا الطلب « طلـب اخرق لا يقوم على اســس معقولة ، واقل ما يقال فيه انه مغامرة قومية، لا تجد من يشجعها ســوى دول « الاستعمار الفقير » كالالمان الرابضين في جبال نروج ، وكالطليان الرابضين في واحة جغبوب » (٣٠) .

كان يجب ان تهـــزم النازية والفاشية ، هذه حقيقة نتفق فيهـا مع الاستاذ نجاتي صدقي ، ومـــع خالد بكداش ايضا . ولكن هـذا لا يجوز ان يعني ابدا القتال في صفوف الحلفاء دون قيد او شرط ، علـــى امل ان يتكرموا علينا بالاستقلال ، مع انه كان واضحا منذ بداية الحرب ان الحلفاء غير مستعدين لبحث اي مطلب استقلالي . ولقد اثبتت نتائج انتصار الحلفـــاء ان تقديـرات الشيوعين في هذا الصدد كانت غير صحيحة ، وخدمت **بريطانيا وفرنسا** اكثر مما خدمت قضية التحـــرر والاستقلال .

## آراء مختلفة في القضية الوطنية

لم يتح لاي قائد شيوعي عربي ما اتيح لخالد بكداش ، فلقد ظل على مسرح الاحداث منذ سنـــة ١٩٣٣ سكرتير اللجنة المركزية للحـــزب الشيوعي في سورية ولبنان طورا ، وفي سورية وحدها تارة ؛ وزعيمـــا شيوعيا بارزا فـــي الاوســاط الشيوعية العربية والعالمية . ولقد ساهم في مناقشة اكثر القضايـــا التي تعرضت لها الامة العربية منـــذ ذلك التاريخ . ولذلك فنحن نجد عند خالد بكداش ، ما لا نجده عند غيره مـــن القادة الشيوعيين . ان لـــه « تراثا » مهما كان مستواه ، ومهمـــا كانت تناقضاته . وسندرس هنـــا مواقفه من : ١ ــ القضية الوطنية ، ٢ ــ القضية الاجتماعية .

## ١ ــ القضية الوطنية

لم يستطع خالد بكداش خـــلال تاريخه الطويل، ان يستقر على مفهوم للقضية الوطنية العربية ، كمـــا انه لم يستطع ايضا ان يثبت خـــلال مناقشاته العديدة للقضية ، واطلالاته المتكررة عليها مقدرته على استيعابها. وقد بدا هذا العجز واضحا من خلال ما يلي :

٢٩ ــ المرجع السابق : ص ٨٦

٣٠ ــ المرجع السابق : ص ١٠١

اولا : لم يدرك طابع الوحدة العربية المعادي للاستعمار ، والمعادي للتخلف ، ضمن الظروف الموضوعية التي احاطت بالوطن العربي منذ بداية هذا القرن .

ثانيا : كان بكداش كلما طرح موضوع الوحدة ، او الحركة العربية، اعتبرها مرادفة للتعاون العربي او التضامن العربي . ونجد ذلك واضحا في اكثر احاديثه التي تعرض فيها للقضية العربية (٣٠) ، كما يبدو هذا في « الميثاق الوطني للحزب الشيوعي السوري » المقر في اول كانون الثاني سنة ١٩٤٤ (٣١) . كانت القضية قضية تعاون وتضامن ، وليس قضية كفاح فلاحي عمالي موحد ضد الامبريالية والاقطاعية .

ثالثا : ولقد حاول خالد بكداش مرات ان يناقش مسألة وجود الامة العربية ، ومقومات هذا الوجود ، مستندا الى تعريف ستالين للامة الوارد آنفا . الا ان بكداش لم يعرف ان يستفيد من التعريف فوقع في اخطاء فاضحة . انه يرى مثلا في مقدمة كتاب «طريق الاستقلال»(٣٢) ان العرب لا تتوافر لهم مقومات الامة، وان هناك امة سورية في طريق التكون (٣٣) . ولكنه يعود سنة ١٩٥٥ في خطاب ألقاه في مجلس النواب السوري فيؤكد ـ استنادا الى التعريف الستاليني للامة ـ بان « جميع مقومات الامة الآنفة التي تعتبرها الاشتراكية العلمية متوفرة في العرب » . لقد اخطأ خالد بكداش في التعريف الاول فهم معنى « ارض مشتركة » ، فلم يفطن الى ان المقصود منها « بقعة ارض » وليس غير ذلك ، فراح يشير الى الفروق الجغرافية بين الاقطار العربية المختلفة كأدلة على عدم وجود امكانية لقيام الوحدة ، وهو في التعريف الثاني يخطىء فهم معنى الحياة الاقتصادية المشتركة . ان العرب لا تتوافر لهم حياة اقتصادية مشتركة ، كما ذكر خالد بكداش ، بسبب التجزئة ، وليست بلادهم متكاملة اقتصاديا ، ولكن عدم تكاملها الان لا ينفي امكانية قيام الوحدة كما يتصور .

رابعا: ويعود خالد بكداش للحديث عن الوحدة سنة ١٩٦٤ في معرض حديثه عن السياسة العربية

---

٣٠ ـ انظر مثلا : الشعب السوري يطلب الاستقلال والحرية وحكما ديمقراطيا صحيحا، دمشق ١٩٤٥ ص ٧ ، وكتاب الياس مرقص «تاريخ الاحزاب الشيوعية في الوطن العربي» ـ ص ٢٠٦

٣١ ـ انظر الياس مرقص ، المرجع السابق ص ٢٢١

٣٢ ـ مجموعات ابحاث لستالين وجزء من خطاب لتوريز في المسالة الوطنية صدر سنة ١٩٣٩ .

٣٣ ـ توجد اكثر نصوص مقدمة بكداش في كتاب الياس مرقص المشار اليه اعلاه ، ص ٢٠٣

للجمهورية العربية المتحدة (٣٤)،فاذا به يطرح موضوع « الخصائص والظروف الموضوعية في كل بلد عربي » ، وموضوع « الاختيار الحر والارادة الحرة للجماهير الشعبية » وموضوع « الديمقراطية والنضال ضد الاستعمار والصداقة معالبلدان الاشتراكية » مقابل طرح شعار الوحدة . ويبدو واضحا ان خالد بكداش يطرح مرة موضوع الوحدة دون تحفظ ، ويطرح مرة اخرى موضوع الخصائص دون تحفظ .

خامسا : لم يدرك خالد بكداش ان حركة التحرر الوطني ، هيحركة ضد الامبرياليةوالاقطاع والبرجوازية معا ، فظل يعتبرها حركة ضد الاستعمار فقط ، وذات مضمون وطني ديمقراطي ، لان « الاشتراكية ليست مطروحة امام الاحزاب الشيوعية في البلدان الخاضعة قوميا ، والتي لا يزال اقتصادها الزراعي تسيطر عليه مخلفات الاقطاعية والعصور الوسطى ... » (٣٥) . ويؤكد خالد بداش سنة ١٩٥١ ان المرحلة « مرحلة التحرر الوطني الديمقراطي ، مرحلة الثورة الوطنية الديمقراطية » (٣٦) . ولقد ظل هذا الشعار مرفوعا ، الى ان اصبح الشعار الاول بعد ثورة ١٤ تموز ، دفاعا عن البرجوازيةالوطنية، وزاد الدفاع عن هذه الموضوعة حدة بعد القرارات التاميمية التي اتخذت في الجمهورية العربية المتحدة سنة ١٩٦١ . والغريب ان خالد بكداش ما زال ــ على الرغم من اقتناعه بامكانية تجاوز المرحلة الراسمالية والانتقال الى الاشتراكية ــ يعتقد ان البرجوازية الهندية مثلا لم تستنفد دورها الايجابي (٣٧) .

سادسا : كان موقف خالد بكداش من قضية فلسطين شأن مواقفه من كل القضايا الاخرىمتغيرا ومتناقضا، ولكنه لم يكن موقفا سليما واضحا واعيا في يوم من الايام . رفضخالد بكداش في المرحلة الاولى التقسيم، وطالب بتحديد الهجرة ، ولكنه لم يتعرض لدور الاستعمار البريطاني (٣٨) . اما في المرحلة الثانية فقد انشغل بمقاومة خطر الفاشية،ضاربا عرض الحائط بكل المسائل الوطنية. ولقد كلل مواقفه بتبني قرار التقسيم الذي ايده الاتحاد السوفياتي سنة ١٩٤٧ . وما زال موقفه غير واضح ولا محدد من قضية فلسطين ، ذلك انه تحت ستار التصريحات العنيفة ضد الامبريالية والصهيونية يتهرب دائما من تحديد موقف من دولة

٣٤ ــ مجلة قضايا السلم والاشتراكية عدد اب ١٩٦٤

٣٥ ــ الياس مرقص : المرجع السابق ، ص ٢٢٨ ، خطاب بتاريخ ٢٧ ــ ٢ ــ ٤٤ .

٣٦ ــ الياس مرقص : المرجع السابق ص ٢٣٢ ــ من تقرير القي في اجتماع موسع للجنة المركزية في سوريا ولبنان .

٣٧ ــ مجلة قضايا السلم والاشتراكية ــ العدد المذكور سابقا .

٣٨ ــ الياس مرقص : المرجع السابق ــ ص

« اسرائيل » .

سابعا : كان بكداش ، وخاصة خلال فترة مقاومة الفاشية والنازية حريصا على التحالف مع فرنسا الديمقراطية . يقول في مقدمة كتاب طريق الاستقلال : « هل يكفينا لحماية كياننا الوطني الناشىء ان تتحالف بلادنا مع الدول العربية الاخرى كالعراق والمملكة السعودية واليمن ... الخ. ، وهي على ما هي عليه من الضعف ، وتتقاذفها عدا ذلك مناورات ومؤامرات الدوائر الاستعمارية المختلفة ؟ كلا ! لا يكفي. بل ان مصلحتنا الوطنية تقضي علينا بان نوطد عرى التحالف مع احدى الدول الديمقراطية الكبرى ، وهذه الدولة لا يمكن ان تكون بالنسبة لنا نحن السوريين واللبنانيين الا فرنسا الديمقراطية » (٣٩) . وفرنسا الديمقراطية هذه ليست فرنسا الجبهة الشعبية فقط ، انها فرنسا بعد سقوط الجبهة الشعبية سنة ١٩٣٩ . لقد عمل بكداش جاهدا من اجل معاهدة سورية ــ فرنسية ، ولشد ما كانت دهشته كبيرة عندما اكتشف سنة ١٩٤٣ «ان اكثر ممثلي الجانب الفرنسي في سوريا يرفضون الاعتراف بان السياسة الفرنسية القديمة كانت استعمارية ومشربة بالروح الفاشستية وينبغي التخلي عنها » ، و « ان الرقابة الفرنسية في لبنان تمنع كل انتقاد للسياسة الفرنسية القديمة » .

ويتساءل بكداش بعد ذلك : « فهل يمكن ان يوحي مثل هذا السلوك من الجانب الفرنسي ثقة واطمئنانا الى قلوبنا نحن السوريين ؟ » . وهو ــ على الرغم من ذلك ــ يطلب « من الجانب الفرنسي ان يبرهن على حسن نيته ، وذلك ببرهان اولي بسيط هو: ابعاد جميع العناصر الفاشستية المشربة بالعقلية الاستعمارية الرجعية، هؤلاء الذين ينظرون الى سوريا كسوق استثمار ووظائف وارباح لهم وللشركات الاحتكارية الراسمالية الفرنسية ، او كاقطاع لهم فيه حق الامر والنهي والحكم دون رقيب ، هؤلاء الذين يشوهون سمعة الشعب الفرنسي ، ويحجبون وجهه المنير الشعبي الجديد ، بوجوههم الكالحة المرائية البغيضة الكريهة » (٤١) .

ولقد اثبتت فرنسا ذات الوجه الشعبي المنير حسن نيتها في اوائل ايار سنة ١٩٤٥ ، بعدوانها على دمشق وبمذبحتها الرهيبة في الجزائر . وبينما القت جريدة الحزب الشيوعي في سورية «صوت الشعب» مسؤولية العدوان في الشام على الفاشست الفرنسيين ، القى الحزب الشيوعي الفرنسي المشترك في الحكم مسؤولية مذبحة الجزائر على « القوميين المتطرفين » من العرب ، طبعا لانهم خرجوا متظاهرين للنصر،

٣٩ ــ مقدمة كتاب طريق الاستقلال ، او الياس مرقص ــ المرجع السابق ص ٢١٥

٤٠ ــ خالد بكداش ــ الشعب السوري يطلب الاستقلال والحرية وحكما ديمقراطيا، صحيحا ، سنة ١٩٤٥ ، ص ٤٣ ــ ٤٤

ومطالبين بتحقيق الوعود بالاستقلال .

وكان يدفع خالد بكداش في هذا الاتجاه عاملان :

اولهما : ان الاتحاد السوفياتي كان حريصا على استمرار قيام الجبهات الشعبية بعد الحرب ، خشية ان يقفز اليمين الى الحكم ، وتبدأ الصدامات مع الاتحاد السوفياتي . كما ان الاتحاد السوفياتي كان حريصا على استمرار التحالف الثلاثي الاميركي البريطاني السوفياتي ، حتى تتاح له الفرصة لمجابهة المشاكل التي نتجت عن الحرب . وكان بكداش صوت هذه السياسة ذلك : « ان استمرار هذا التحالف يفتح للشعوب افاقا فسيحة للامل في نيل قسط اوفر من الحرية ، وفي تجنيب العالم ، خلال مدة طويلة ، ويلات حروب جديدة» . ويؤكد بكداش اعتمادا على حديث لستالين ان هذا التحالف تحالف وطيد ، ويضيف : « وهذا شيء ينبغي ان نتذكره دائما » (٤١) .

ثانيهما : ان جبهة شعبية حكمت فرنسا بعد الحرب ، ساهم فيها الحزب الشيوعي الفرنسي ، الذي كان يتلقى منه خالد بكداش التوجيهات . وكانت الجبهة هذه معرضة للانهيار في اية لحظة اذا ما استثيرت العناصر الفاشستية الاستعمارية في فرنسا . ولم يكن اي من توريز او بكداش حريصا على استثارة اليمين لمصلحة بقاء الجبهة الشعبية ، ولكن بقاؤها لمصلحة من ... ؟ .. ! هذا ما يبدو ان خالد بكداش لم يهتم به ، لانه لم يكلف نفسه عناء تقييم هذه المرحلة، ومناقشة وقائعها ، بعد ان تفتتت الجبهة الشعبية المؤقتة ، وتحول الحلفاء الى اعداء ، ولم تستفد الشعوب المستعمرة شيئا يذكر .

## ٢ ـ القضية الاجتماعية

لقد قامت الحركة الشيوعية من اجل احداث الثورة الاجتماعية ... من اجل قيام دكتاتورية البروليتاريا، والقضاء على الملكية الفردية . وظل الشيوعيون يناضلون دون هوادة حتى قامت ثورة اكتوبر الاشتراكية في روسيا سنة ١٩١٧ . وكان ان اكتشف لينين ان الثورة الاجتماعية يمكن ان تحدث دون المرور بالمرحلة الراسمالية في البلدان التابعة ، بدعم الاتحاد السوفياتي ، والطبقة العاملة في البلدان المتقدمة . وجاءت ثورة الصين لتؤكد صحة ما ذهب اليه لينين . ولكن خالد بكداش ظل يصر منذ سنة ١٩٣٣ حتى سنة ١٩٦٥ ، ان القضية بالنسبة لسوريا ولبنان والبلاد العربية هي قضية مرحلة تحرر وطني ديمقراطي . وكان هذا يجعله مسوقا للتاكيد دائما بان قضية الاشتراكية غير واردة . هذا ما يؤكده خالد بكداش مرارا . قال في اجتماع اللجنة المركزية وممثلي المنظمات الرئيسية للحزب الشيوعي

٤١ ـ خالد بكداش ـ المرجع السابق ـ ص ١١ ـ ١٢

السوري المنعقد في ٨ كانون الاول ١٩٤٤ : « ايها الرفاق : لقد قلنا ونعيد ان القضية في نظر الحزب الشيوعي ليست قضية اشتراكية ، او اقامة نظام اشتراكي في سوريا ، انها قضية سيادة واستقلال وديمقراطية ، وهي الان قضية تجنيب بلادنا السير نحو كارثة محققة ، اذا لم تتغير اساليب الحكم وطرق التفكير في الحكم من اساسها» (٤٢) . كان هذا الموقف هو موقف بكداش الذي لم يحد عنه . ظهر هذا في مواثيق وبيانات الحزب الشيوعي في سورية ولبنان ، التي كانت دائما تتحدث عن اصلاحات لا عن ثورة اجتماعية (٤٣) . ولقد برزت روح خالد بكداش هذه في الحديث الذي القاه في الكولوكيوم المنعقد ببراغ في حزيران من سنة ١٩٥٨ ، والذي تحدث فيه عن الاصلاح الزراعي في مصر وسورية، مقررا انه يتم لمصلحة المزارعين الاغنياء، وان نجاحه سيبعد الفلاحين عن الطبقة العاملة حليفتهم ، وذاكرا ان السياسة الاميركية تؤيد هذا الاتجاه (٤٥) . وكشف خالد بكداش عن مثل هذه الروح ايضا عندما قاوم التاميمات التي حدثت في الجمهورية العربية المتحدة سنة ١٩٦١ .

بدأ خالد بكداش يتحول عن هذا الاتجاه بعد سنة ١٩٦٣ ، وبعد ان اقتنع الاتحاد السوفياتي ، واقتنعت الاحزاب الشيوعية المحلية بأن مواقفها الماضية لم تكن سليمة ، وان مجمل الظروف المحلية والعالمية يقتضي تغيير السياسة حتى تلائم الوضع الجديد .

ويرى بكداش اليوم ان الاصلاح الزراعي ( ولو كان غير جذري ) ، وتأميم البنوك وبعض الشركات الكبرى تدابير تقدمية ، وان لم تكن اشتراكية .

ان بكداش يؤكد في كل مقالاته التي كتبها سنة ١٩٦٤ و ١٩٦٥ ، وكل احاديثه على ما يلي:

١ ــ « ان هنالك عناصر قومية تريد لبلدانها باخلاص التقدم الاجتماعي والنهوض الاقتصادي ، وترى بالتجربة انه لن يتحقق لها ما تريد عن طريق التطور الراسمالي . بل اكثر من ذلك فان الاحتفاظ بالعلاقات الراسمالية لن يؤدي الا الى تخليد التخلف والتأخر في هذه البلدان ، ويجعل من الممكن عودتها الى تحت السيطرة الاستعمارية بشكل جديد . ولذلك فان قومية هذه العناصر هي نفسها التي تدفعها الى اعتناق الاشتراكية . ومهما بدت هذه الظاهرة غريبة ومتناقضة ومخالفة للمقاييس السابقة ، فهي واقع ادى اليه ديالكتيك العصر

٤٢ ــ المرجع السابق ص ٥٤

٤٣ ــ خالد بكداش ــ الحزب الشيوعي في النضال لاجل الاستقلال والسيادة الوطنية ١٩٤٤ ، ص ٦٩

٤٤ ــ مجلة قضايا السلم والاشتراكية ــ العدد الاول ــ ايلول سنة ١٩٥٨

الحاضر ، عصر الانتقال من الراسمالية الى الاشتراكية » (٤٥) .

٢ ـ « وحدة جميع التيارات والاتجاهات الاشتراكية في قلب حركة التحرر الوطني » (٤٦) .

٣ ـ امكانية تجاوز المرحلة الراسمالية او « قطع التطور الراسمالي والخروج منه ، حتى ولو كان مثل هذا التطور قد بدا » (٤٧) .

على الرغم من هذا كله ، فلا يبدو ان خالد بكداش قد فهم حتى الان ديالكتيك العصر . ذلك انه ـ كما ظهر مما اقتبسناه من كلامه عن الوحدة العربية ـ لا زال غير مدرك، ولا واع لمعنى وحدة النضال القومي والاشتراكي . ولعل موقفه المتردد المتحفظ من قضية الوحدة ، هو خير دليل على ما نذهب اليه . نحن لا نختلف مع بكداش في القول بضرورة اخذ الاعتبارات الموضوعية لكل قطر من الاقطار العربية بعين الاعتبار ، ولا نختلف معه على ضرورة بناء الوحدة العربية على اسس ديمقراطية، ولكننا نختلف معه عندما يطرح التحفظات بدل طرح الشعار، وعندما يجعل من الاعتبارات الطارئة « خصائص » .

ان « التحولات » التي مر بها بكداش ، وهي ذات طابع سياسي، تجعلنا نقف حذرين من « التحول الاخير » لا سيما وانه لا يتسم بالعمق والنفاذ .

**( البقية في العدد القادم )**

---

٤٥ ـ نفس المصدر .

٤٧ ـ خالد بكداش ، تطور حركة التحرر الشيوعيين .

٤٧ ـ مجلة قضايا السلم والاشتراكية ـ اذار سنة ١٩٦٥ « سورية على الطريق الجديدة » .


يصدر قريبا :

**الحرية**
**في الدولة الحديثة**

تاليف
**هارولد لاسكي**

ترجمة
**احمد رضوان عز الدين**

**منشورات دار الطليعة ـ بيروت**